
رواية
الكتاب مُهدى إلى حساب أصدقاء القراءة
@RFriends_
5.6.2012
@ketab_n
رائحة الفحم
عبدالعزيز الصقعبي
أثر


رواية
الكتاب مُهدى إلى حساب أصدقاء القراءة
@RFriends_
5.6.2012
@ketab_n
رائحة الفحم
عبدالعزيز الصقعبي
أثر

رائحةُ الفَحمِ

رواية

عبد العزيز الصقعبي



رائحةُ الفَحمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثانية

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-2-84409-674-6



للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

Email: info@darathar.net

الجزء الأول

مدخل

ما بعدك ... هذا الطوفان الذي يمزق جسدي أشلاء، وأنت مخاض الصمت الأبدي الذي يخترق عالمي الداخلي، فيبدد ظلمة حزن أعانيه.

أفقت ذات مساء على طرق قوي ومزعج على باب غرفتي... غـادرت سـريري فزعـاً.. لبسـت ثوبـاً كنـت قد وضعتـه بالقرب من السرير تحسباً لمثل هذه الطوارئ، وستراً لجسدي العاري، فتحت الباب.

واجهني بابتسامته (صباحك فل)

يا لهذه القذارة! (أينك والصباح؟)

أغلقـت البـاب بعـد أن تأكـدت مـن اسـتقراره قـرب هـرم من الكتب... وعدت إلى سريري محاولاً تكملة حلم جميل.

كان ذلك مجرد (شج) في وجهي... علامة فارقة أثر جرح قديم.. كادت عيني أن تفقأ... ملأت الحي صراخاً مما حدا بوالدي وبعض رجال الحي أن ينقلوني إلى المركز الصحي بسيارة إسعاف.

كنت أستمع لصوتها... أشبه بالموكب.. لا أحد يقف في الطريق (وا... وا... وا...)

حاولت أن أقلدها ذات يوم ولكن كادت أن تدهمني سيارة.

- الله لطف.

- كاد أن يفقد عينه.

- من قذف بتلك الزجاجة؟.

كان الكلب ينبح مزعجاً أهل الحي، مستدعياً قطيعاً من الكلاب، وكانت الفكرة هي القضاء عليها وطردها من الحي (لنقذفها بالحجارة.. لنقذفها بكل ما تقع أيدينا عليه)

هذا الشج العلامة الفارقة... وهذا الكلب المدلل الذي يتربع بخيلاء بجانب صاحبه في مسابقة أجمل كلب..

هذه الصحيفة لماذا لا تنشر عن أجمل شج في العالم؟!!

قالت لي أختي ذات يوم: إنه منحني شيئاً من الوسامة. سأطلب من موظف الأحوال المدنية أن يكتب في أثناء تعبئة بطاقتي الشخصية... العلامة الفارقة- شج جميل- بجانب عينه اليسرى!!

كنت أتأمل وجهي في المرآة... هذه الهالة السوداء حول عيني

وهذا الجسد الناحل.

(ذقني يحتاج إلى ماكينة حلاقة - يابانية الصُّنع كالتي تملأ إعلاناتها صفحات الصحف اليومية).

- الله لطف.

- كاد أن يفقد عينه.

ما هذه الفكرة الخرقاء... لا أدري لماذا تجمعوا داخل سيارة الإسعاف معي... لم أكن مقتنعاً تماماً بهذا الكم الهائل الذي حشر نفسه داخل سيارة الإسعاف، لدي قناعة بأن دافع الفضول مسيطر على أغلبهم... لم يجد لي والدي مكاناً بين هذا الجمع فوضعني في حضنه ولف نصف رأسي بغترته البيضاء التي تسربلت بذلك الدم مما أثار الرعب في صدر والدي خوفاً من أن تكون العين تفصدت كقطع الدم التي تنز من بين خيوط (الغترة) التي كانت بيضاء.

كان هذا الشج هو الذكرى الأولى الشاحبة التي عرفت من خلالها كيف أكون مثاراً للفضول.

* * *

يا لهذا العناء... السقم... متهالك ووجهه يشع بصخب المدينة.. ما أنت سوى هذه الكلمات القليلة التي حدثتني بها عن نفسك... حسبك أن تكون مثار جدل بين الجميع.. ثمة قناعة بأنك تتجاوز الكلمات.

لأتركك تتحدث عن نفسي كما أتوهمها أناأ وعندها أجد أنني

مجرد بطل أسطوري يصلح لمأساة مسرحية تضج قاعة المسرح بالتصفيق بعد انتهاء فصولها الثلاثة.. يا لهذا العناء.. لكم أنت مبدع حقاً حينما ترسم وجهاً مليئاً بالصخب.

أهذه هي المدينة التي أشعرتني بأن ما كتب عنها يملأ غرفتي... دعني أقرأ شعراً... وليكن.. كَمْ هي طرية تلك الكلمات...

يا لهذه الصورة..كيف أشعر بأن الأجساد تتهاوى وتبقى صورتي مجرد طلاء أبيض على صفحة سوداء...

(لا تعبث بهذا الفحم... الجدران رخامية والفحم أسود وأنت ترسم وجهاً... وطفلاً يلعب بالكرة... وشمساً ونخلة... ويعيش... ويعيش).

حسبك حديثاً عن نفسي.. إنني كنت طفلاً أمارس اللعب وأرسم بالفحم الأسود على الحائط الرخامي ما أعشقه في حيّنا الصغير..

(حمامة.. ونخلة).

* * *

لا أدري كيف أصف مقدار حنيني إليك، فمنذ أن عرفتك شعرت برغبة لأن أصل إليك... حاولت أن أراك.. توهمتك طيفاً... كنت ذاك الصمت الذي أقضّ مضجعي... أتعودين... وتعدينني بأن تكملي تلك الكلمات التي خفت أن تمزق وجهك حرارتها... لا تخافي، فهذا الصمت بوح لكل المشاعر...

هناك وخلف كل الأزمنة أراك..

كنت ممدداً على السرير الأبيض... وكانت الحمى تمارس رقصة الزار في جسدي... وكنت أنت طائراً أبيض..

- سقيم.. حقاً سقيم. من تكون؟

- ظننته آخر وجه أودعه قبل الموت.

- لم تمت.

- وأصبحت مقتنعاً بأنه هو الوجه الذي يجب ألا أودعه

- ....

- قلت للطبيب بعد أن أقنعني بتحسن صحتي وأن بإمكاني مغادرة المستشفى..(لقد وجدت نصفي الآخر)،سألني عنها قلت: لم أرها منذ تلك الليلة، قال لي

- قد تكون الحمى.

- أجبته

- أنا واثق من نفسي..كانت معك تلك الليلة...كانت تحاول أن تخفف وطأة الألم.

- أوه.. تذكرتها... ولكنها رحلت..

- رحلت.

يا لهذا البرود... هكذا رحلت..

أختي قالت لي ذات يوم إن كل إنسان سواء أكان رجلاً أم امرأة له نصف آخر...

سألتني: أين تتوقع أن تجد نصفك الآخر ...!

أجبتها : (في حيِّنا الصغير هذا).

كنت أحلم بابنة عمي... كانت أكبر مني بسنوات.. دائماً تضحك... دائماً تهتم بي...

أحياناً تبكي عندما تتذكر أخاها الذي كان يلعب معي والذي تحوّل إلى كومة لحم تحت شاحنة...

اشترت لي ذات يوم قلماً وزجاجة عطر وكتاباً.. وقالت أريدك رجلاً أنيقاً..حسبك.. يجب أن تعتني بنفسك فلم تعد طفلاً..

غادرت حيِّنا الصغير ذات صيف .. وعندما عدت قالوا إنها رحلت بعد أن وجدت نصفها الآخر..

(أحقاً رحلت.. رحلت .. أخاف من الرحيل..كنت سأرحل إلى عالم آخر وتبقين أنت بلا نصف ولكن ها أنت رحلت... أتعودين يا نصفي الرائع؟.. سأبحث عنك... حسبي أن أرى منك تلك الابتسامة حينما تكون الابتسامة أمراً مستحيلاً أحقاً سأراك... ليت ذاك يحدث.. وليبق الألم.. لتبق الحمى وتبقين معي).

***

لم أكن مستاء تماماً من تصرفات بعض الأصدقاء لكونهم مقتنعين بأن غرفتي مرفأ خاص...لم أحاول أن أغير ذلك الانطباع..

كانت غرفة واحدة فقط... بنيت من الطوب، وطليت جدرانها «بالرخام".. وُضِعَ بجانبها مستراح وممر يصلح لأن يكون مطبخاً... النافذة التي تطل على الشارع احتلت نصف الجدار مما حدا بي أن أضع فيها أكواماً من الكتب وبقايا صحف ومجلاتا الحي فقد هويته فهو أشبه بالمنطقة الصناعية لكثرة (الورش) ومحلات النجارة والحدادة..

مع ذلك فهو آهل بالسكان من مختلف الجنسيات .

ذات يوم شعرت برغبة للذهاب إلى المقهى القابع في وسط الحي... حملت معي قلماً وبعضاً من الأوراق وبدأت أرصد جنسيات من أراهم وما ألحظه من تصرفات التي قد لا يكون لدي الاقتناع التام بها..

امتلأت الأوراق ولم ينته ذلك التعدُّد الغريب..

طلبت كأساً من الشاي وبدأت بمراجعة ما كتبته.. طلبت كأساً آخر من الشاي مع إضافة قليل من حَبِّ الهال لإعطائه نكهة خاصة..

فكرت بكتابة مسرحية صاخبة أبطالها أولئك الأشخاص الذين كتبت عنهم في تلك الوريقات.. بحثت عن قضية... أجناس متعددة لا رابط بينهم... ماذا لو أساء أحدهم التصرف مع آخر فحدثت (مشادة) وبدأ كل واحد ينادي أحلافه وتوسعت تلك المشكلة حتى عم اللغط في الحي فتكسر زجاج بعض النوافذ وأصبحت مقاعد هذا المقهى حطاماً.. وتطاير الغبار وتناثر الزبد وولولت النساء.

وصاح الأطفال خوفاً على آبائهم مؤملين أن ينتهي العنف، فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون، واشتعلت النار في ذلك الهشيم من الناس...

احترقت الأرض.. واحترق الحي.!.

يا له من تصور مفجع.. (كابوس أسود).. أتكون حرباً عالمية ثالثة تنطلق من هذا الحي؟...

قد لا أجد في نفسي القدرة على تجسيد تلك المشاهد المفجعة في عمل مسرحي..

فكرت أن أطلع أصدقائي على ما كتبت...

كنت قد غادرت المقهى بعد أن سألت ذلك النادل عن إمكانية أخذ كمية كبيرة من الشاي المعطر بحب الهال.. عرّفته موقع غرفتي... وحددت له الزمن الذي يحضر الشاي فيه!!...

(لست وجهي أنت ولا تلك الهياكل بنيت من رماد... أستقرئ فيك مراسم الفرح.. كان صحواً.. كان ذاك العشب ينبت بين مسام صخرة.. عبثاً تكون الصخرة جسداً هلامياً لمارد.. ويكون الوجه عيوناً تنز بالصديد...

لست وجهي أنت يا ذاك الكساح.. غائباً كنت عيوناً تتلاشى في الأفق... كنت الأرق).

كان صوتي يتماوج ببحة وكنت أراه يرهف السمع... يستجدي الفهم..

- أهذا بقايا حلم؟

- ليس حلماً بل كابوس أعيشه.

- منذ متى غادرت حيّكم الصغير ذاك؟

- خمس سنوات... شيء من هذا القبيل!!

- وذلك الشيخ ألا تراه الآن؟

- منذ أن كبر أطفاله الأربعة من زوجته الثانية قل اهتمامه بي واكتفى بالعتاب لعدم حرصي على زيارته في فترات متقاربة.

- وأختك.

- : وجدت نصفها الآخر ورحلت معه بعيداً.

- أعلم كل هذا.

- ولماذا تسأل؟

- ثمة شيء فيك أجهله تماماً.

- ما هو؟

- من أنت؟!

(ذلك الذي لا يحمل وجهاً يرتحل باحثاً عن أرض مملوءة بالكلأ...).

- ألا تعرف من أنا!!

- من أنت؟

- ....!!

- أعرف أن اسمك سعيد وأنك تعمل معي في تلك المنجرة الصغيرة، كل هذا لا يقنعني أريد أن أعرف حقيقة من أنت.

- كاتب حسابات بالمنجرة.

- أعلـم ذلـك.. منـذ زمـن عندمـا قدمت للعمـل كنت تتنحى جانبـاً بعـد الانتهـاء مـن عملك لتقـرأ كتاباً معك... الأميرة ذات الهمة.. التغريبة الهلالية.. عنترة، كنت تقرأ كثيراً.

- لا زلت أقرأ وليس في هذا أي عيب.

- لذلك أسألك من أنت؟

- أتحقيق هذا؟.. هذه بطاقتي الشخصية تحقق من هويتي.

- حفظت كل شـيء كتب ببطاقتك الشـخصية.. لا يهمني أن كان اسـمك سـعيداً وأن العلاقة الفارقة - شـج - بجانب عينك اليسرى.

- وماذا تريد إذن؟

- دعني أقرأ كل ما كتبت قد أتعرف عليك ملياً..

- ليت ذاك.. ستقابلك قطع من الغمام الأسود تلك هي

نفسي.. رجاء لا تحلق من خلال الغمام فحسبك موتاً مجرد

التفكير فيه.. أين وصلت بالقراءة؟

- غائباً كنت عيوناً تتلاشى في الأفق... كنت الأرق.

- ....

- كنت الأرق وماذا بعد؟..

- غائباً كنت عيوناً تتلاشى في الأفق.. كنت الأرق.

* * *

صغيرة كانت أختي عندما قدمت أنا ورحلت أمي! علمت فيما بعد أن أمي لم تسعد بلقائي..

قالت أختي معللة ذلك: (سعادتها أكبر بلقاء ربها).

لم أعِ تماماً حاجة والدي لامرأة فقد كان أخي يصغرني بسنة واحدة مما حدا بزوجة أبي إلى الطلب منه بإرسالي إلى خالتي لتُعنى بي.

بعد فترة قصيرة من الزمن قدمت أختي باكية إلى بيت خالتي! في الإجازات الدراسية كنت أذهب وأزور والدي مع أختي... ومع كل زيارة كنت أشعر بأنه يبتعد عني.

ترملت خالتي بعد زواجها بفترة قصيرة..

وكنا عزاء لها..

أي حنين هذا الذي يشدّني إلى الماضي..أي شوق يدفعني

لكي أتذكر تفاصيل صغيرة لحياة بسيطة..

أيُّ زمن كان ذاك الزمن.

يرهقني التذكر فألجأ إلى أختي لتحكي لي قصصاً عن حيِّنا الصغير.. عن خالتي.. كانت جميلة.. تعنى بمظهرها.. أنيقة..سألتها لماذا لم تتزوج؟!!

بقي السؤال بدون إجابة..سألت أختي ذات يوم:

- هل كنت شؤماً على أبي؟!

- لماذا؟

- لأنني أتيت ورحلت أمي.

- ولكن أبي تزوج.

- قد يكرهني!

- لماذا؟

- للسبب ذاته.

-: ألم تر خوفه عليك عندما كادت الزجاجة أن تفقدك عينك؟

- أبي لا يريدنا.

أحترق شوقاً لرؤية أبي في كل وقت... قلت ذلك لأختي ذات مرة وكان الصمت إجابتها.

* * *

سيدتي، يا لهذا الصفاء... سأحكي هذا الصفاء بديوان شعر.

سيدتي تعشق الربيع، القوافل المهاجرة، في أفلام رعاة البقر.. طائر اللقلق عندما يخفي إحدى قدميه ويقف على قدم واحدة... الزهور البيضاء... الحديث الهامس في المساء.

سيدتي يا لهذا العبق المترع بوهج نجم فسفوري مضمخاً برائحة ورد... ها هو ذوبان الثلج ندياً من عينين تشعان بريقاً.. تحتل سيدتي الجزء الأكبر من ذاكرتي... أتخيلها.. أراها...

- عفواً تبدو أكثر اكتئاباً هذا اليوم؟

- أتذكر تلك الأغنية التي سمعناها سوياً مساء أمس.

- أي أغنية؟

- ألم أقل لك بعد سماعنا لها.. كنت سأكتب تلك الكلمات.

- أتحلم؟

- مساء أمس كان ذاك المقهى على غير عادته.. كان هادئاً.

- كعادته.

- لا.. ولكن أكثر هدوءاً.

- وما الغريب في ذلك؟

- كانت تلك الأغنية أيضاً هادئة.

- أتذكر كلماتها؟

- كنت سأكتب تلك الكلمات.

- وما الذي منعك؟

- سبقني إليها غيري.

- قد يعيش معاناتك.

- كانت أغنية.

- كانت... وكنت أنت تحلم.

- ولكن عيون سيدتي حقيقة لا حلم.

- سيدتك!!... من تكون؟

أخاف أن أتحدث عنك فتهربين مني.. عندها سأفقد هذا الصفاء... فأنت يا سيدتي تكرهين أن يتجاوز السر اثنين.. وتفضلين أن تبقي شمساً تشرق في صدري تبدد ذاك الغمام الأسود.

* * *

(سكون) اسم خالتي.. الجميع ينادونها بهذا الاسم.. كنت طفلاً أقلد.. فبدأت أناديها بهذا الاسم مجرداً... كان صوتها جميلاً وكانت تحسن الرقص في جميع المحافل.

- عندما تزف إلى عروسك سأغني وأرقص وأملأ الحي طرباً.

- ابنة عمي تريديني أن أصبح من الآن رجلاً أنيقاً.

- هدى تهتم بالجميع.

- لماذا لا تسكن معنا؟

- ألا يكفي زياراتها المتكررة لنا.

- أفضل بقاءها.

- أترغب أن ترهقها نفسياً.. إن كل ركن في هذا البيت يذكرها بأحمد.

- كنت ألعب معه ذلك اليوم.. كانت هدى هنا.. وكنت خارج المنـزل عندما استأذنا لنلعب بالخارج.

- ألم ينتبه للشاحنة؟!

- كانت مسـرعة... دخلت المنـزل باكياً... قابلتني مفجوعة تصرخ.. أحمد.. أحمد..

- ومنذ تلك الحادثة ازدادت كراهية عمك لي.

- لا ذنب لك فأنت كنت متغيبة عن ذلك المنزل ذلك اليوم.

- هدى تصر على زيارتنا.

- علاقتها باختي قوية.

(كانـت أختـي تحدثهـا كثيـراً عـن خالتـي سـكون... حاولت ذات مـرة أن أتصنـت لأسـمع مـا تقولـه.. تنبهـت لوجودي وغيرت الحديث..).

* * *

- هائل.. هائل.. أنت قادر على كتابة هذا العمل المسرحي.

- تلك الأجناس البشرية المتعددة أأستطيع أن أكتب عنها؟

- ولِمَ لا.. لقد دونت تصرفات كل واحد منهم بدقة؟

- ولكـن مـن الصعوبـة أن أوجـد قضيـة لتصبح محـوراً لهذا العمل المسرحي الذي سأكتبه.

- ألم يعجبك الشاي مع حب الهال؟

- بلى..

- إذن تخيل أن الحدث يقع في مقهى... هذا يطلب قهوة... والآخـر حليبـاً... والنـادل يصـر علـى تقديم الشـاي بحب الهال.

- قد يكون هذا تميزاً للمقهى.

- أعتقد أن الطبيعة البشرية تختلف.. فهنالك من يتسم بالبرود وهنالك من هو عكس ذلك تماماً.

- لقد تحسنت ثقافتك.

- إذن أنت مقتنع بالعمل المسرحي.

- تماماً.. لتسمِّه (وجوه في الزحام).

- لا... سبقني لذلك العنوان كاتبة من الكويت تدعى فاطمة اليوسف.

- إذن... في الزحام لا أحد.

- غادة السمان تملك هذا العنوان.

- العنوان لا يُملك.

- ما أريده هو الِجدّة في كل شيء حتى العنوان.

- إذن لتكتف بلفظ الزحام.

- الزحام.. الزحام.. لماذا إصرارك على هذا الاسم؟

- لا أدري. ولكن التعدد هذا يوحي بالزحام.

- إذن لتكتبها أنت.

- لا أستطيع.

- وأنا في الوقت الراهن لا أستطيع.

* * *

تلك اللحظات التي أشعر فيها بالوحدة أحاول تذكر ذلك الطيف... وجه أبيض... ملاءة بيضاء... زمن يعبق فيه البياض...

- ما اسمها؟

- ليلى.

- لماذا فَضَّلت الرحيل؟

- لا أدري تماماً، ولكن ثمة ظروف.

- هل ستعود؟

- يا لهؤلاء المرضى!... أتمنى أن تفرقوا بين التصرف الإنساني

للممرضة.. وبين النساء الأخريات.

- ولكني أرغب الزواج منها.

- ارحل إليها.

(بعيدة هي كنجمة... الخوف يحاصرني... لا أعي تماماً المسافة بين الوهم والواقع... رأيتها ذات مساء... كنت شبحاً أحلق في سماوات الألم... هل رأت كيف كنت مستسلماً لحقنة التخدير.. لو كان غيرها لما أصابني الخدر... كنت أتأملها مبتسمة.. بيضاء... يعم البياض.. تبقى الابتسامة ضوءاً متوهجاً... أغادر الزمان...

فتحت عيني... جرح مكان الألم السابق... الوجوه تغيرت... كانت الأرض زرقاء... فرس أبيض يحلق... حمامة تدخل جحر ضب... الدم أزرق... الماء ينسكب أمامي... أصفر... الشمس تبحث عن ظل... أختي تتدثر بملاءة سوداء تجهش باكية... سكون تترنم بأغنية حزينة.. تحيط بالسرير راقصة... يصفق الجميع لها... تجعل من شعرها شلالات سوداء... تحلق فوقي... أصوات دفوف... صراخ... أحمد يخرج بكفن أحمر... يقابلني بوجه شاحب... كنا نلعب سوياً.. قطرات دم حمراء تهطل من سقف الغرفة.. هدى تقابلني مبتسمة... أنت... ارحل وحيداً... طبيب يمسك بيدي... يرفعها إلى الأعلى... تتدلى عروق من يدي...

يطلقها فتهوي كصخرة... ذقن أبي يمتلئ بالدموع... يمد يده محاولاً أن يمسك بيدي.. يحمله إخوتي الأربعة بعيداً... يصرخ.. سعيد.. سعيد... تقف زوجة أبي بعيداً تضحك.. أصوات الدفوف.. بكاء أختي... الأزهار البيضاء تتدلى من جدران الغرفة... صراخ الممرضة... الزيارة انتهت... استمرار سكون في الرقص... نظرة كراهية تنطق بها عينا عمي... أبقى مسجى على السرير والألم تحول إلى جرح... أبحث عنها... عن ذلك الوجه.. تقابلني ابتسامة غريبة من الطبيب... الممرضات... أرى الحمى شبحاً أسود يهيمن على الذاكرة.. أحاول أن أسترجع ملامحها... تبقى الابتسامة بيضاء.. وهج أبيض يشعُّ... لا أرى.. لا أعي...

***

- كل هذه تنتظرني.

- لا أحد يقدر أن يقوم بعملك غيرك.

كانت الأوراق تغطي تلك الطاولة الخشبية...

- كل هذه في فترة غيابي؟

- أجل.

- ومن يثبت أنكم قمتم بهذه الأعمال.

- انظر إلى المدخل ستجد أعداداً كبيرة من النوافذ والأبواب الخشبية.

- تحتاجون لمكافأة..

- البركة فيك.

- مثلكم أنا عامل... عموماً سأكتب له عرضاً أطلب فيه زيادة المرتب.

- تكاليف المعيشة ارتفعت.. وصاحب المنزل طالب برفع الإيجار.

- من حسن الحظ أنني أسكن في هذه الغرفة المرفقة بالمنجرة.

كانت لدى صاحب المنجرة فكرة لتحويلها إلى مصنع متكامل بعد أن يحصل على قطعة أرض كبيرة خارج المدينة... كان لديه طموح بأن يتجاوز عمل الأبواب والنوافذ إلى جميع المصنوعات الخشبية من غرف نوم ومطابخ... كانت أمنيتي ألا يحدث هذا... فعلاقتي بهذا الحي أصبحت قوية، وعشرتي مع جدران الغرفة تجعلني أطالب ببقائي بالقرب منها إلى الأبد... حتى ولو أصبحت الممرضة ليلى زوجتي فستشعر بسعادة لبقائها معي في هذه الغرفة.

هذه الغرفة... هذا الأخطبوط المحاصر جسدي... عقلي... لا أستطيع الفرار منه... هذا الحصار المرير... أنا مجرد عامل ولو كنت أمارس أعمالاً مكتبية.

* * *

مجموعة من الصبية سيطرت عليهم غطرسة التحدي... لماذا

الأبـواب مغلقـة... كان الفضـول يجتاحنـي لأرى ماذا سـيفعلون... بدأت أرقبهم عن كثب... كان حارس المدرسـة يقف بالقرب من البوابة... شيخاً طاعناً في السن... يقذفه أحدهم بحجر صغير لكي يبتعـد عـن البوابـة.. ويهـرب يلحق به... يغادر الصبية المدرسـة... فوجئت عندما أمسك الحارس بي بعنف.

- هذا هو.

كنت أصرخُ:..لا...لا.

كان فناء المدرسة مملوءاً بالطلبة، والمدير يصرخ بهم.

- نحن نعلم الأخلاق من... التربية أولاً.. هذه المرة الأولى التي تحدث بمدرستنا عندما يتآمر بعض الصبية ويفكرون بالهروب من المدرسـة.. لقد قررنا فصلهم جميعاً ليكونوا عبرة لغيرهم.

- لست معهم.

- هذا الشيخ لا يكذب.

«سامحك الله أيها الشيخ... يا لهذا الفضول الذي تسبب في ضياعي".

- أنت مفصول.

- صدقونـي مجـرد فضولـي متطفل.. أنا رأيتهم... فقط كنت أتابع تحركاتهم... يا لهذا الفضول... أنا.. أنا...

- أنت مفصول.

- تفوقي ألا يكون شفيعاً.

- أنت مفصول.

كان المدير يتحدث بغضب... ها هو الشرر يتطاير من عينيه... كنت أبكي.. وسكون تستجديه ليعيدني إلى المدرسة... وأختي تقبل قدمي أبي ورأسه ليبحث عن مسؤول يملك صلاحية إعادتي للمدرسة..

صرخت فيهم:

- أنا لن أعود إلى المدرسة.

لم أع تماماً هذه الكلمة ولكن كنت أبحث عن موقف... هدى قالت لي: أريد أن تكون رجلاً أنيقاً.. أنا رجل... لم أعد طفلاً... سأبحث عن عمل... كنت قد وجدت عملاً بمكتبة فترة من الزمن، ثم ما لبثت أن أغلقت المكتبة لكساد سوق الكتب..

بعد أن تزوجت أختي... استأذنت من سكون بأن أبحث عن عمل في مكان آخر... تركتها دموعاً... واعداً إياها بأن أعود إليها بعد أن تتحسن حالتي المادية... كنت أحاول جاهداً ألا أكون مثاراً للفضول مرة أخرى!

الجزء الثاني

عيناك زرقاوان.. ووجهك يشعُّ بياضاً... لماذا أنت هكذا حديث المساءات المترعة بالشوق والحنين.

(أبحث عنك أيها الحبيب).

لا ليل في حيِّنا الصغير... لا كلمات تذوب كقوالب سكر.. الصمت يخترق ساحات الحزن.

- مات.. ها هو ذا الصبر يخيم على وجه المدينة.

- سكون.. زوجك مات.

(مدينتنا لا تموت... نتخيلها قصوراً شامخة مزدانة أزقتها بالورد والريحان).

(أبحث عنك أيها الحبيب).

يا قلب لا ترحل.

ما بعدك حزن ما قبل كل صمتك حزن... لا ترحل فمدينتنا

لا تموت... ووجهي يحمل ملامح من أزقتها الصغيرة حين تتكدس فيه البيوت.

- في هذا المساء تزف زينة النساء وذات الصوت والعفاف إلى فخرشباب الحي... أين أنت يا سكون.. نريدك قمراً يشع هذه الليلة.

- مات.. مات.. أهو الموت الذي يحول دون الفرح.

- عندما لا يعرف وجهك الحزن تكونين أكثر إغراء أكثر جمالاً بالسواد.. هل الموت خيانة..

تركني وحيدة.. أتجرع مرارة الحزن والفراق... أتعذب.. كفاني بكاء فمثلي لا يبكي على مدينة رحلت عنها.

فمدينتنا الأرض كلها... أبي قال لي:

(لن تذوقي طعم الاستقرار في حياتك يا سكون)..

لماذا نبحث عن هذه الأرض...

هل مدينتنا سرابية؟

- لم أنم مساء أمس... كان صوتك ينتشلني من كل آلامي...

- أصوتي رائع حقاً... ها .. ها .. يا قلب لا تحزن.

(مثقلة أنا بهذا الهم... ووجه (شوق) يحاصرني أراه بابتسامة «دنيا"...).

حركات سعيد الطفولية... أعين الناس... كنت متأكدة تماماً من عدم مقدرتك على بناء مدينة - مدينتنا سرابية-... حتى عندما تزوجته وأنجبت (دنيا) كنت أزداد يقيناً بأننا سنرحل لنبحث عن مدينة سرابية...لم أكن أعلم أن رحيلك سيكون صعباً إلا مع احتضاني لسعيد رضيعاً يبحث عن حنان أم.. كان إصرارك عجيباً على أن أتزوج.. (تزوجيه.. لا يهم كونه مسناً.. فالاستقرار يكمن في هذه الثروة التي لديه.. كانت مواساتك لي إيذاناً برحيل أمارسه للبحث عن أرض أخرى أستقر بها).

- هذه الليلة سيكون لي شأن معها...

- أتقدر عليها!؟!

(هذا حلمنا الأبدي الجميل (كيف السبيل إلى وصالك).. أرملة وتعول أبناء أختها..).

- هذه الليلة سيكون لي شأن معها.. منذ أن تزوج أخي من (شوق) وأنا أنظر إلى سكون زوجة ثانية... هذه الخرقاء رفضتني.

(عمك يا سعيد يناصبني العداء... يكرهني ما ذنبي أنا إن هربت من رجل تزوج ثلاث نساء؟... أترضى أن أسيء إلى هدى بزواجي من والدها.. هي.. أتتني باكية متوسلة ألا أكون زوجة لأبيها).

(لا تغضبي يا دنيا... وما العيب في أن تكوني ابنة شوق وأن تكون خالتك سكون... ما العيب في أن تموت أمك وأنت طفلة

ويهرب منك والدك خوفاً من ذكرى أليمة مر بها...

(إيه يا قلبي لا تحزن... يا لهذا القلب كيف يحبُّ وكيف يكره... كيف يمارس العداء لمجرد تنحيته عن مهمات التصرف في مصير الإنسان... من يقول يحب أن نجعل العقل حكماً... هذا حكم جائر.. مستبد.. كيف نقضي على مصير إنسان؟.. كيف نهدم مدينة..؟

(.. المدينة سرابية.. والقافلة تنقش على الأرض معاناة حيكت بأيدي صناع مهرة تمثل البحث الدؤوب عن زمن يختلف عن كل زمن في مدينة فاضلة...

أهي مدينتنا السرابية... مجتمع اليوتوبيا).

أيها الحكم.. يا هذا العقل.. ما مصير هذه القافلة هذه طفلة منيت بأحزان أبدية.. هل يعيبها أن تكون طفلة تزوجت من كهل ورحل بعيداً... تركها تتجرع مرارة الحزن؟ ما العيب في أن تمارس الرقص والغناء؟.. ألأنها أرملة تكون مصدر شبهة؟.. ما بال أعين الرجال تتلصص باحثة عن نزوة خاصة.

***

- هذه الليلة...

- كل مساء تردد مقولتك تلك.

- كان أخي لا يعي الذي سيصيبه من زواجه من شوق.

- ولكنها ماتت.

- لم تمت ها هم أطفالها باقون وصمة عار على جبينه.

- وماذا تريد من سكون؟

- كنت أرغب فيها... مجرد نزوة..

- أتنسى العيب؟

- هذه الليلة سيكون لي شأن معها.

- لتستمع إليها وهي تغني .. بإمكانك أن تقف خلف الستار بعيداً عن أعين زوجاتك وتستمع إليها..

- ستغني هذه الليلة.

- وترقص.

متداخلة هذه الكلمات.. ذات عبق خاص.. القصر مزدان بوهج ضوئي... وسكون تغني.. سعيد رحل باحثاً عن مدينة سرابية.. ودنيا تحلق بعيداً داخل قفص خاص.

في هذه الليلة ستزفُّ زينة النساء إلى فخر الشباب.

هذه اللحظة ستزدان بوعد خاص.

دقائق ويغادر الجميع... تأتي الشمس مشرقة بهدوء، لا تعتب فلم يعد الليل طويلاً... وسكون تمارس الرقص حتى تسقط زارا.. لازالت تتدثر بالسواد... عادة تأتي ومعها بعض النسوة.. تختار من

بينهن من تقوى على الرقص أطول فترة ممكنة من الزمن فترقص معها... تراقصها..

تصيح.. (انظروا إليه.. ها هو يأتي..) تتطاير أعين النسوة باحثة عنه... مجنونة... تتوهم..

يقال: إن قلبها كحجر الصوان.. ألا تحب.. يا لهذا الحجر ألا ينفطر..

(ها هو يأتي .. يبحث عن رابعة... انظروا إليه... متيقنة بأنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يقف أمام أهل الحي جميعهم، ويقول سكون زوجتي.. لا أخاف العيب... وشوق زوجة أخي...).

أهو حقاً الرجل الذي أريده... وهدى لا ترغب أن يكون لأبيها زوجة رابعة أو انها لا تريد أن تكون سكون زوجة لأبيها... أهي تخاف العيب... يا لهذه الدوامة... أنا لا أرفضك.. لنرحل سوياً..

فمدينتنا السرابية ليست هنا..

- من منا يقدر على خطفها هذه الليلة؟

- أستشفُّ التحدي من أسلوبك.

- أنا لا أتحدى، ولكن كونها أرملة وحيدة يدفعني إلى أن أفكر في ذلك.

- : دعك من هذا الهذر.

- : لن أتزوجها.. لست مثل أخي ينصاع لشوق ذليلاً.

- : وحيـدة هـي.. مـن الأفضـل أن تغادر هذا الحي.. لتلحق بسعيد...

الأرض موحلة.. هذه الأزقة تبدو ضيقة ورديئة التهوية..

لمـاذا هـذه البيـوت الطينية توحي بالفناء... الأبواب موصدة.. النوافـذ موصـدة. الأطفـال يبحثـون عـن كلاب مزعجـة ليقذفوهـا بالحجارة... النسوة داخل البيت.. يغتسلن... يدلقن على أجسادهن عطراً رخيصاً... يخضبن أيديهن وأرجلهن بالحناء.. يترنمن بأهازيج خاصة.. الأطفال يتسلقون جدران المنازل... يصعدون فوق سطوحها محاولين الإمساك بزوج حمام هرب من قفصه، بائع متجول يصيح بأعلى صوته (لدينا أنواع من الحرير... أمشاط... زجاجات عطر.. أصواف.. أحذية..) يلتف حوله الأطفال (نريد حلوى) تدوي صرخة امرأة من أحد البيوت إشعاراً أن ضيفاً.. (ما) سيحل فيه..

الأزقة تختزن أرضها الموحلة أحاديث كثيرة عن الأقدام التي وطئتها.

سـكون تنثـر العبـق فـي تلـك الأزقة... والأطفـال يبحثون عن لعبة جديدة ليمارسوها ببراءة متناهية.

(لنغادر هذا الزمن الباهت ونبحث عن منتجع أفضل).

- هل تمارس الرحيل؟

- منذ أن سكنت هذا الحي لم تغادره.

- ومن منكم يستطيع أن يكون زوجاً لها؟

- أرملة باقية على ذكرى زوجها.

- يا لهذا الوفاء.. ولكن كيف يكون ذلك وهي تمارس الرقص أمام أعين النساء..؟!

(باهتة كل المعالم... لايراك أحد بعين الحقيقة..)

(هل أنا ضعيفة أمام إغراء المال.. لم أفهم تماماً إصرار شوق على تزويجي من ذلك الشيخ المسن.. وما يعنيني إذا توفيت زوجته وبقي وحيداً؟.. وما ذنبي إذا اقتنع أن وظيفة الزوجة أشبه بوظيفة ممرضة... هل يكفيني مجرد رضاه عني لكوني جعلته يشعر بالحياة ولو لفترة بسيطة؟

أبي قال لي: لن تذوقي طعم الاستقرار في حياتك يا سكون، هذه ليست نبوءة بالواقع.. أخدع نفسي حينما أقول إنني شعرت بلذة الاستقرار في كنف ذلك الشيخ الوقور... مأساتي أنني حلم كل رجال الحي حتى بعد زواجي، لديهم تصور كامل أنني طائر غريب يستحق الصيد... أنا لست بطائر غريب.. أنا حمامة بيضاء تبحث عن عش تستقر فيه.

- الليلة ستزف زينة النساء إلى فخر الشباب.. نريدك قمراً يشع في هذه الليلة.

- أنا قمر.. يا قلب لا تحزن.

- أنا لم أتزوج بعد... سأغادر هذا الحي.. كل ما أطلبه منك... مرافقتي.

- إلى أين؟

- اختاري أي مكان ترغبين وسألبي طلبك... كل ما أريده أن توافقي على الزواج مني.

- وماذا تريد من أرملة؟

- أن تنزع هذا الحزن من وجهها وتلبس حلة قشيبة ملؤها السعادة معي.

- ما أجمل أحلامك.. ولكن أخاف..

- ممن؟

- منك.. أقصد أخاف عليك... ألا تخشى العيب؟

ها هو القصر رملياً شاهقاً يُبنى.. لماذا يبنى فقط من الرمل..؟ سينقض بمجرد أن تعبث به أيدي الأطفال...

(سكون) منزلها يقع في نهاية الطريق المؤدي إلى وسط السوق.

فكرت أن تستغل جزءاً منه في فتح متجر على الشارع وتطلب من سعيد البقاء والإشراف عليه...

ولكن إصراره كان غريباً على مغادرة الحي.

حلمها الذي يحاصرها أن تبني بيتاً صغيراً وأن يكون لديها أسرة صغيرة.. تتزوج... تنعم بلذة الاستقرار.. لديها القناعة بأنها لن تعرفها.. رجال الحي ينظرون إليها على أنها مجرد نزوة.

كانت تقول أريده وحيداً ولو كان معدماً... هدى أوشكت أن تحقد عليها ولكن رفضها لوالدها جعلها تشعر بشيء من الطمأنينة نحوها... حتى ليلة زواجها أصرت بأن تحيي سكون الحفل بالرقص والغناء.

وكانت ليلة من ليالي الصيف الرائعة.

لا زال الجميع يتذكرها .. عدا سعيد الذي غادر في ذلك الصيف بعيداً وقد صدم بزواج هدى..

والدها قذف في وجه سكون رزمة من النقود (هذه أجرة لأتعابك).

خرجت وهي تصيح- لا أريد أجرة.. هدى أختي ويجب أن أشاركها الفرحة... وأنا لست سبباً في موت أحمد وأنا لا أصلح لك.. لا أصلح.. لا أصلح.

- والليلة ستزف زينة النساء إلى فخر الشباب.

- سيكون لي معها شأن.

- يا لهذا الإصرار!.

لنستثن كل مراسيم الفرح ولنوجد مساراً آخر لفرح هذه

الليلة.. لا زال الجميع يتذكر حفل زفاف هدى والليلة ستكون ذكرى أخرى.

يا لهذه الذكريات.. من منكم يحلم بحياة سعيدة بعيداً عن أي نزوة ليبعد عن مخيلته تماماً (سكون) وليدعها تكابد تقلبات الزمن...

كنت خائفة عليك (يا دنيا) من أعينهم تحملين ملامح «شوق".. لا أريد أن تعيدي بعضاً من سيرتنا... لتبنى مدينة أخرى.. أعذريني إذا كنت متسرعة بالموافقة على زواجك وأنت لا زلت صغيرة.. ولكن خوفي عليك هو الذي دفعني لذلك..

لا تسألي لماذا يرفض والدك تزويجك ولماذا رفض حضور عقد القران، واكتفى بالموافقة بعيداً.. مرغماً.

ليس العيب أن تكوني ابنة شوق... فوالدك لا زال يمارس العيب بتجاهله لكما خوفاً من إعادة ذكرى لنزوة عاشها مع أمك...

لتسعدي فها هو ذا الفارس الأسمر قدم ليأخذك بعيداً... أنا سعيدة بذلك لكونك هربت من مكان موبوء وزمن أغبر.

هذا الأرق المحاصر وجه الحي لماذا تزداد وطأته بمجرد الخوف من أن يكون أحدهم صادقاً في حديثه.. هذا الأرق يهيمن على أعين الناس.

- الليلة فرح ولا كل فرح.

- الليلة ستزف زينة النساء إلى فخر الشباب.

- وسكون قمر يشع.

- لنبدأ مراسيم الفرح.

- ليصل موكب سكون.

- ستأتي.

- متى؟

- من عادتها أن تتأخر ولكن حتماً ستأتي.

يا لهذه الأرملة الوحيدة... لماذا هي الوحيدة في الحي حديث الجميع... ما شأنهم في أن تأتي أو لا تأتي؟!

أكل هذا شوق لسماع صوتها..؟

أو التلصص بعيداً لمشاهدتها وهي تراقص أجمل النساء في الحفل... لا زالت هي الأجمل.. وثوبها الأسود يولّد إحساساً يعمق معاناتها.

- لتبق الأنوار مضاءة. ستأتي حتماً.

- لتذهب إحداكن لاستدعائها.

- ربما رحلت إلى سعيد.

- ولكنها وعدت بالمجيء.

الأزقة تزداد ضيقاً... قوالب الطوب تقف متراصة على الجانبين

مكونة جدراناً لمنازل صغيرة.. النوافذ مغلقة... البرد يتجول في أزقة الحي يدخل جميع المنازل.. ينهش من لحم الفقراء العاري.. يهرب بعيداً حتماً يشعر بأن الدفء بدأ يمارس احتضانه للأجساد الباردة. الغرفة صغيرة.. ها هي ذي صورة سعيد يزدان بها الحائط المواجه للباب.

البرد يعلن احتضاره في هذه الغرفة بمجرد مشاهدة اللهب يتخلل قطع الفحم الصغيرة. الدخان ينبعث من اللهب... تمتلئ الغرفة سواداً...

(الليلة يريدني الجميع أن أكون قمراً يشع.. يجب أن أكون أجمل... لا بأس من وضع شيء من البخور على الفحم..).

(شوق) أوصتني بإغلاق الباب في أثناء التطيب بالبخور حتى لاتنبعث رائحته خارج المنزل ويكون ذلك مدعاة للفضول.. زوجي قبل أن يموت كان يتلذذ برائحتي... الجميع يقولون: لك عبق خاص.. أحدهم قال لي نعلم أنك مررت من ذلك الزقاق بمجرد إحساسنا بتلك الرائحة الجميلة. هل أتصف بكل هذا؟؟.. (يا قلب لا تحزن)

يا لهذه الرائحة الخانقة.. أكل هذا من رائحة البخور.. قد يكون رائحة الفحم.. الفحم أسود.. الدخان الذي ينبعث منه رمادياً.. سقف الغرفة يسودُّ.. الدخان الشهادة الصامتة لفترة اختناق... رائحة الفحم... الدوار... الغرفة تضاء بأنوار عرس زينة النساء..

إضاءة حمراء... ثمة طريق مؤد إلى شمس مشرقة... مدينة سرابية تقف في وجه الشمس... رائحة الفحم... الدوار... الشمس تغرق خلف الحائط... الحائط يطلي بالسـواد... الباب موصد... النوافذ موصدة... البرد مهيمن في الخارج... رائحة الفحم تنبعث بين مسام الباب... الأزقة ضيقة... الجميع ينتظر سكون... ستأتي حتماً.

- منذ ساعات رأيتها تتسوق.

- كعادتها لابد أن تقدم للعروس هدية للذكرى.

- أين هي؟

- ماذا تريد منها؟

- سيكون لي شأن معها هذه الليلة.

- ألا زلت تكرهها؟

- أصبحتُ هزءاً أمام جميع نسائي بسببها.

- ألأنها رفضتك؟

- ومن تكون حتى ترفضني؟

- أعلم أن هذه كلمات ترددها.. سيكون لي شأن معها هذه الليلة - ولكن أنا واثق بأنك لن تنفذ شيئاً مما قلته.

(ما أسوأ الانتظار... لترقص إحداكن وتغني).

- العروس تصر على أن تحيي حفل زفافها سكون.

- انظروا ماذا تريد... وفِّروا جميع طلباتها.. لتأتي..

- الصبية قرعوا باب منـزلها ولا مجيب.

- فجأة هكذا تغادر الحي.

- ولكنها وعدت بالحضور.

- اذهبن واحضرنها.

- ليذهب معكن بعض الرجال.

ها هي ذي الأزقة تستقبل موكباً خاصاً...

أين أنت يا سعيد؟ أين أنت يا دنيا؟

انظروا مدى حب الجميع لخالتكم سكون..

ها هي ذي المدينة بنيت في هذا الحي... ها هي ذي الشمس أشرقت وأُشرعت لها النوافذ.

- الباب موصد من الداخل.

- ثمة دخان ينبعث من النافذة.

-: حريق.. أجل حريق... اكسروا الباب.. افتحوا النوافذ.

الليلة ستُزف زينة النساء... موكب من الحزن.. ليس هناك حريق... انظروا إليها مختنقة من الفحم.. رائحة الفحم قاتلة.. هذا الأسود يصر على أن يكون لونه هو المهيمن.

- ابحثوا عن سعيد.

- لا يعرف مكانه أحد غيرها.

- ودنيا.

- رحلت بعيداً مع زوجها.

لنبدأ مراسيم العزاء.

(سكون يا زينة نساء الحي... لماذا تتجاهلين طلبي... كنت صادقاً عندما رغبت في الزواج منك...

أهذه نهاية الرحلة التي تريدينها).

- انتحار هذا؟

- لا.

- من تظنون يفعل ذلك؟!

-: لا.. لا.. لست أنا... أنا فعلاً كررت أكثر من مرة وعلى أكثر من شخص أنه سيكون لي شأن معها.. ولكن لم أنوِ قتلها.

- قضاء وقدر.

- لنبحث عن سعيد.

- لا أحد يعرف مكانه.

- ووالده؟

- عاتب عليه لرحيله بعيداً عنه.

- وعمه؟

- علاقته ليست حسنة معه لأنه يعيش مع سكون.

* * *

طفلة صغيرة تولد... تلعب بالأزقة بعد أن تشعر بأنها لم تعد رضيعاً... تمارس اللعب أمام أعين الأطفال...

تتناول حجراً وتقذف به رأس رجل متجه إلى منـزله.. يشج رأسه ويسيل الدم بغزارة.. بعد أن يجمد الدم.. يسأل عنها.

طفلة صغيرة أتت مع أهلها منذ أيام إلى هذا الحي...

- أختها ستتزوج.

- ممن؟

- لا أحد يدري ولكن هنالك شائعة بأنها ستتزوج أحد شباب الحي.

- سأعرف من هو.

- لا داعي.

- لماذا؟

- لأن الشائعات تؤكد أن أخاك هو الزوج.

تكبر الطفلة.. يعلم الجميع بأن شوقاً تزوجت وأنجبت طفلة. وأن سكوناً - تلك الطفلة - تنتظر زوجاً.

- سأتزوجها.

- سكون.

- ولكنها بعمر ابنتك.

- ربما ترفضك.

-: من يقوى على رفضي... سكون الزوجة الرابعة.

(ذلك الجرح أخف من هذا الرفض).

ردد ذلك كثيراً... لم يع أحد ما قاله.

* * *

هذا الصمت المحاصر لتلك القصور المبنية من الرمل التي عبثت بها الريح وجعلتها أطلالاً خربة... هذا الصمت يوحي بأغنية حزينة ترددها سكون غنتها طفلة حينما كانت تلعب في أحد أزقة الحي... نهرها والدها وطلب منها أن تكف عن الغناء ولو سمع منها تلك الأغنية مرة أخرى سيجعلها خرساء...

وسكون ماتت.. ستبقى ذكرى في هذا الحي... ستنعدم أزقة الحي من ذلك العبق الرائع.

- سأسمي أول طفلة أرزق بها باسمها.

-: أمجنون أنت؟

- وما العيب في أن أُسمي طفلتي باسم سكون؟!

- لا عيب في ذلك، ولكن أنت تحاول أن تعيد ذكرى أليمة يحاول أن ينساها البعض.

- سأسميها سكون وليكن ما يكون.

- إذن لا مكان لك في هذا الحي.

- وهل أصبح ملككم؟

- لا. ولكن لا نريد أن يتفشى العيب في حيِّنا.

- عالم مجنون... تلك المرأة لم تسيء إلى أحد... لم ترضخ لنـزوة أحدكم... ماذا تريدون منها حتى بعد موتها.

- كانت أرملة.

- وهل هذا ذنبها؟

- كانت ترقص وتغني.

- ولا أحد يطعن في شرفها.

- لقد أصبحت محامياً عنها.

- أتحدث عن الحقيقة.. الواقع..

- كفاك.. نعلم أنك كنت تستجديها لتوافق على الزواج منك.

- الزواج قسمة ونصيب كما يقال.

- مسكين حقاً.. لا زال مولعاً بها...

الصمت لا زال مهيمناً على كل شـيء ... زينة النسـاء زفت إلى فخر الشباب بموكب صامت.. لم يعد أحد يقدر على التنصت وسماع الغناء..

المدينة التي حاولت أن تصل إليها سكون سرابية.

ها هو ذا السراب يغشى عينيها فتهب مفجوعة باحثة عن أي شيء يشعرها بأن الواقع لا بد أن يكون أرضاً صلبة لتتمكن الأقدام من وطئها.. ماتت.. رحلت...

بقـي الحـي بأزقتـه الضيقـة وبيوتـه الملتصقـة ببعضهـا البعض وأطفالـه الباحثيـن عـن كلاب مزعجـة ليقذفوها بالحجارة... وذلك البائع المتجول الذي يصر على المرور أمام بيتها منادياً (لدينا أنواع من الحرير... أمشاط... زجاجات عطر... أصواف... أحذية).

الجزء الثالث

-: هل تحسن الغناء؟

- قد لا يعجبكم صوتي.

- يـا لهـذا العـذر الواهي..! اسـمعوا.. سـعيد سيشـدو بأغنية رائعة.

- ولكني...

- الجميع يصرون على السماع منك.

كان ذلـك الغنـاء مزدانـاً بأنـوار كثيـرة احتفـاء بـزواج صاحب المنجرة.. جميع العمال لبسوا حللاً جديدة مشاركة لهذا الفرح.

(أين أنت يا سكون؟... لو تأتين... ثقتي بأن الجميع سيعجب بصوتك).

- لنسمع يا سعيد..

يصفق الجميع... ويعم الصمت لسماع غناء سعيد...

((أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي

ولمسة أمي

وتكبر في الطفولة

يوماً على صدر يوم

وأعشق عمري لأني

إذا مت

أخجل من دمع أمي))(*)

-: أعتقد أن هذه ليست مناسبة.

جفنه علم الغزل	ومن العلم ما قتل
فحرقنا نفوسنا	في جحيم من القبل
ونشدنا ولم نزل	حلم الحب والشباب
حلم الزهر والندى	حلم اللهو والشراب
هاتها من يد الرضى	جرعة تبعث الجنون
كيف يشكو من الظمأ	من له هذه العيون (**)

(*) محمود درويش.

(**) الأخطل الصغير.

- رائع.

ضج الفناء تصفيقاً..

أختي قالت لي:- يجب أن تكلل احترامك لنفسك من خلال الألفاظ التي تتحدث بها.

- ما رأيك أن نذهب بعيداً.

كنت قد هممت بالخروج.. وكانت هذه الفكرة تسيطر عليّ... أصابني الملل... تركتهم يمارسون فرحهم بأغنيات مبتذلة بعد الاعتذار منهم بعدم استطاعتي الاستمرار في الغناء...

- أريد مكاناً هادئاً.

- ما رأيك بالمقهى؟

- لا بأس.

- ولكن لماذا لا تبقى هنا... هذه الليلة من النادر أن تتكرر.

- لقد أصابني الملل.

- كنت أتوقع ذلك... أنا مثلك أيضاً.

غادرنا الصخب واستقبلنا صمت المقهى.

- شاياً بحب الهال.

- زجاجة كولا.

ها هو الهاجس يحاصرني ووجه ليلى ينبعث من خلال

السحب...

بدأ يتحدث كثيراً على غير عادته.

- أتدري بماذا أفكر جدياً؟

- ....

- بالزواج.. ما رأيك يا سعيد في أن نتزوج سوياً؟

- ....

- هل لا زلت تحلم بليلى.. بعيد أنت عنها.

- ....

-: محمود صاحب البقالة تلك، لديه ابنتان... سمعت عن جمالهما الكثير... لماذا لا نذهب سوياً تطلب إحداهن.. وأنا آخذ الأخرى؟

- تشبهان ليلى؟

- لا أدري تماماً ماذا تريد... ليلى حلم... من المؤلم أن يسيطر الحلم على الواقع... لن يرفض العم محمود طلبنا برؤية ابنتيه عندما يثق بمدى صدقنا ورغبتنا في الزواج.

- أريد زوجة تحمل ملامح ليلى.

- لتبق كالمجنون أما أنا فسأذهب غداً لأطلب الكبرى.

- وستتزوجها؟

- ما أتفه هذا السؤال... عذراً..

- ولكن هل تستطيع إعالتها؟

- سؤال أبدي... بصراحة أنا محتاج إلى امرأة.

- تبحث عن نصفك الآخر... هذا الهاجس الذي كان يحاصرني حتى لمحت ليلى.

- ولكنك كنت محموماً في تلك الليلة.

- أنت تردد هذه المقولة والطبيب كذلك أنا لم أكن محموماً في تلك الليلة.

- عفواً اهدأ.

- أنا قررت أن أبحث عنها... سآخذ عنوانها من المستشفى وأرحل إليها.

- ستخسر كثيراً.

- ستكون خسارتي عندما لا أجدها.

(يشرق وجهك في الظلمة.. تمتد عروقك تحيط بجسدي... أحترق شوقاً إلى لقائك... يا عمري الرائع يا ليلى).

* * *

هذه الغرفة يحتاج حائطها لأن يزدان بصورتها.. قد تكون محاولة يائسة لاسترجاع ملامح تدب فيها الحياة...

عندما كنت صغيراً كنت أرسم بالفحم على الجدران الرخامية الأشياء التي أحبها... (حمامة ونخلة) لو قُدّر أن أرجع طفلاً لرسمت بجانب الحمامة وجه ليلى.. ليس لدي الآن قطعة فحم والحائط مطلي بدهان زيتي ملون.

سأحضر ورقة بيضاء وأحاول أن أتذكر ملامحها تماماً.

* * *

لا أدري لماذا يصر أصدقائي على قطع أحلامي الجميلة بطرقِهم المزعج للباب.... سأتجاهل هذا الإزعاج وأعاود النوم... ولكن قد ينخلع الباب من قوة الطرق.. قد تنقض الغرفة عليّ.. قد أدفن بين أكوام الكتب الموجودة في فتحة النافذة والرف الخشبي المقابل لها. من الأفضل أن أجعل الباب مفتوحاً قليلاً ليتمكن الزملاء من الدخول دون إزعاج لي.

ولكن من المحتمل أن يأتي بدلاً من الزميل.. لص.. يغريه ذلك الباب المفتوح وذلك الصمت المحيط بالغرفة فيدخل ليسرق...

قد يكون لصاً مثقفاً فيسرق جميع الكتب... يا لهذا الجنون... لا يوجد بالغرفة ما يغري لسرقته...ربما يسرقني أنا ويجعلني رهينة... يبحث عن أهلي... أقربائي ليساومهم... لا أحد يعرف أين أهلي... والدي سيلتزم الصمت حتماً... وسكون ستضحي بجسدها لقاء عودتي، وأختي دنيا بعيدة جداً مع نصفها الآخر...

الزمـلاء سـيجدون حديثـاً ممتعـاً يتناقلونه فيمـا بينهم لاقتناعهم أني شخصية غريبة الأطوار تقبع خلف غمام أسود..

وليلى... ما أجملها من حلم هل تعي أن واحداً من بين الآلاف الذين رأتهم على السرير الأبيض لازال يهيم بها...

أذنـاي سـتنفجران مـن هـذا الطـرق العنيـف، حتـى الأحـلام تلاشت... لذا من الأفضل أن أفتح الباب.

- لدي خبر سار.

- وأي خبر سار يأتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

- أريد أن تتوقع ما هو هذا الخبر.

- أتدري أني أحدثك وأنا نائم؟

- لو أخبرتك لطار النوم من عينيك.

- ما هو الخبر؟

- أريد أن تخمّن أنت.

- اسمع سأقذفك بهذه الزجاجة إذا لم تخبرني وتجعلني أعود للنوم!

- رأيت ليلى.

- ماذا؟!

- ألم تسمع.. رأيت ليلى.

- ليلى... ليلى الممرضة؟

- لا ليلى صاحبة المجنون.

- كفاك سخرية.. أين رأيتها؟

- في المستشفى ذاته.

- أمتأكد أنها ليلى؟

- ألم أكن معك تلك الليلة ورأيناها معاً؟

- أجل .. أجل.

- هل تحدثت معها... هل سألت عن سبب عودتها... ستبقى طويلاً...؟

- كنت ذاهباً مع العم محمود حيث عاوده الألم الشديد في أسفل بطنه... و قد طلبنا سيارة إسعاف ورافقته إلى لمستشفى، وهناك رأيتها وتأكدت من أنها ليلى... وهأنذا أتيت لأخبرك بذلك.

- وكيف حال العم محمود؟

- تحسن كثيراً بعد أن تداركه الأطباء بالعلاج.. ماذا ستفعل؟!!

- سأذهب.

- أمجنون أنت؟ في هذه الساعة المتأخرة من الليل تذهب؟

- لن أصبر.. سأذهب لأراها.

- أنت المجنون حقاً... قد لا تجدها الآن.. من الأفضل أن تنتظر حتى يأتي الصباح.

- إذن أرجوك أن تعتذر لي إذا تأخرت عن العمل.

* * *

كم هي مشرقة هذه الشمس في هذا الصباح الرائع... رائعة أصوات زقزقة العصافير... كل شيء ينبئ بأنه رائع في هذا الصباح الجميل... أشعر بنشاط غريب لم أحتج للمنبه لكي يوقظني.. حقيقة لم أنم وإن كنت نائماً.. فقد كانت نومة جميلة تتخللها أحلام سعيدة... المذياع على غير عادته يبث هذا الصباح أغنيات تحث على التفاؤل مع أخبار طريفة... الطرائف التي يقدمها المذيع تبدو سارة ومبهجة تجعلني أضحك ملء قلبي.

((انظري يا ليلى إلى هيئتي.. ألا أبدو أنيقاً؟.. تأملي هذا الشج بجانب عيني اليسرى... ألا يعطيني شيئاً من الوسامة؟.. أختي قالت لي ذلك وأنا أثق بكل ما تقوله أختي..

وقد أخبرتني بأني سأجد نصفي الحلو حتماً... وها أنا أجدك... سأراك أراك الآن.. سأتمارض في البدء... سأقول بأنني أشعر بصداع عنيف.. ستضعين يدك البيضاء الجميلة على جبيني لتتحسسي مدى الحرارة.. ستفاجئينهم باللهب.. أين كنت؟... في تلك الليلة لم أكن مصاباً بالحمى... أصبت بالحمى عندما علمت برحيلك وهأنذا الآن أشعر بأنني سأشفى حتماً عند لقائك..

ليلى.. يا لهذا الحلم الجميل... أين أنت... لتشرقي شمساً تضيء لي حياتي..)).

ها هو ذا البياض يعمُّ جميع الأشـياء التي أراها.. لبسـت ثوباً أبيض وغترة بيضاء... وجزمة بيضاء.. متفائل جداً باللون الأبيض... سـأراك الآن يحتلك البياض... وتلك الابتسـامة ليلى... ليلى... يا لهذا الشوق كم يجعل المسافة طويلة على الرغم من قصرها... ها هو المستشـفى شـامخاً أمامي... ها هو الطبيب الذي أشـرف على علاجي يهم بالدخول... سألحق به.. وسأسأله عن ليلى. سأتزوجها في هذا اليوم. لن أنتظر.. كفاني انتظاراً.

- مرحباً دكتور.

- أهلاً.

- .. أحم... سمعت أن الممرضة ليلى قد عادت للمستشفى.

- أوه... تذكرت.. أنت سعيد... أهلاً... أهلاً بالمتيم.. ها.. ها.. أجل عادت.

- ألم أقل بأنها ستعود..

- أجل عـادت ولكـن يؤسـفني أن أقـول لـك إنها عادت مع زوجها زميلنا دكتور...

- عفواً..كان صوت منبه سـيارة الإسـعاف مزعجاً لم أسـمع ماقلته.

- عادت مع زوجها زميلنا الدكتور... الزواج قسمة ونصيب... ستجد حتماً أجمل من ليلى وستسعد معها.

أين الشمس؟... لم تعد مشرقة... قد لاتكون صادقاً... كذب... أصدقائي جميعهم يعلمون مدى سخريتي من الأمور المفتعلة في المسلسلات التلفزيونية... سأطلب من صديقي أن يذهب بدلاً مني ويطلب يدها مباشرة... سأتأكد... ربما الشمس لم تغب.. مجرد سحابة صيف مرت من أمامها... لابد أن تنقشع... سأطلب... سأتأكد... سا.....

* * *

(كل هذا البياض يذكرني بالكفن).

لا أدري لماذا بقيت هذه الكلمات تحاصرني..

وأمل دنقل – قالها بإحساس خاص بالموت... كنت قرأت على أصدقائي قصيدة أمل دنقل (ضد من) قرأتها مرة واثنتين وثلاثاً... حفظتها... كدت أن أهذي بها.

- كان من الأولى أن تتأكد من أنها غير متزوجة قبل أن تهيم بها.

- اعذرني إذا كنت قد أحرجتك عندما طلبت منك أن تتأكد.

- كانت تضحك ساخرة... قالت: بعد الآن ستضع الممرضات لافتة كبيرة على صدورهن كتب عليها.. متزوجة.. غير متزوجة..

- ليلى تسخر... لا أصدق.

-:

ألا زلت تهذي بها؟

* * *

الجزء الرابع

حزن يحاصرني... هذه الأشلاء من جسدي تناثرت.. تشبعت بالوحل هأنذا لا أحمل هذا الجسد.. وتلك الذاكرة لا تعي أين المرفأ!

لا يكون هذا الوصل الحلم مجرد هاجس يجتاح كل مسامات جسدي.. فمنذ أن عرفته كانت انطلاقة للخروج من داخل الأشياء المغلقة من مكعبات ودوائر.

هذه اللعبة لابد أن تنتهي بنتيجة واحدة هي الانتصار.. وعندها سيتحدد مصير هذا الطيف الذي يراودني دائماً. أهو هذا الحلم حقاً دوائر زرقاء... ومكعبات بنفسجية وخيوط أوهى من بيت العنكبوت.. سيان أن يكون حلماً أو أن تكون حقيقة فالقصر الرملي ينقض والمدينة سرابية ورائحة الفحم تخنقني كما خنقت سكون.

حزن هو هذا الحصار الأبدي لطفل فقد حنان الأمومة ونسي أن له أباً.

عفواً عزيزي أنا لا أهرب من الحقيقة.. فالحقيقة كالشمس.. أحمق من يحاول أن يخفي قرص الشمس بيده فلابد أن تتسرب أشعتها من بين أصابعه. عفواً عزيزي.. لأبقى ذكرى خاصة لكم... سأغادر هذه الغرفة الكئيبة... سأترك مجموعة الكتب تلك لكم لتقرأوها... تذكروا أن عيني مرّتا على كل سطر فيها... وهذا الهذيان الذي كتبته تناقلوه فيما بينكم منشورات سرية.. ليس بالشعر ولا الخاطرة... مجرد هذيان...

أعتقد أني سأكف عن الهذيان في هذه اللحظة، دعوني أكمل مشواراً بدأته سكون بالبحث عن مدينة سرابية.

ليلى كانت حلماً رائعاً... تلاشى هذا الحلم.. ولابد أن ثمة صحواً بعد هذا الغمام... لتقرأ يا عزيزي ما كتبت... ولتتذكر سعيداً... اجعله مجرد ذكرى... أخبر الجميع أنه... كان مجرد عامل بالمنجرة! اختاره صاحبها ليقوم بالأعمال المكتبية بها.. توقع أكثر من تعامل مع المنجرة أنه صاحبها... وكانت المفاجأة عندما علموا أنه عامل.

اعذرني إذا لم أقتنع برأيك بالزواج من ابنة محمود.. ربما في هذا الوقت.. ولكن أعدك عندما أعثر على مدينتي السرابية فسأعود وأفكر جدياً بما كررته عليّ أكثر من مرة وأكون ذلك الإنسان الذي أنت تريده...

سأقول لك بكل صراحة رائحة الفحم تحاصرني.. تلحُّ عليّ

أن أسأل هل ماتت حقاً سكون؟ فمنذ أن علمت بالنبأ شعرت بأن العلاقة التي تربطني بأبي وبعمي واهية جداً.

أختي دنيا لم تجب على سؤال طرحته عليها أكثر من مرة: لماذا أبي يكرهنا؟ ولماذا عمي يحقد على خالتي سكون.. ولماذا؟ ولماذا؟ لماذا أبقى منبوذاً أبحث مع سكون عن مدينة سرابية؟

عفواً قد لا تصلك هذه الكلمات ولكن قد تجدها من خلال الهذيان الذي كتبته، حين ينقشع ذاك الغمام حتماً سنلتقي وحتماً ستعرفني تماماً.

* * *

لا أدري كنه هذه الوجوه التي يسيطر عليها الفضول... أيهنئونني بالعودة أم يعزونني بوفاة سكون؟... أأبتسم لهم أم أقابلهم بالبكاء؟.

منذ أن وصلت إلى هنا قابلني الصمت وحاصرتني الأسئلة.. أين كنت؟... كان من الأولى أن تذهب إلى عمك...

لم أجب واكتفيت بتمتمة أغنية قديمة كنت أسمع (سكون) تترنم بها حينما كنت صغيراً.

- عمك يدعوك لتناول طعام الغداء معه.

- من؟

- عمك.

(لم يسأل عني هذا الشيخ المزواج في الزمن الغابر.. لماذا يدعوني هذا اليوم).

- مرهق... سآتي إليه فيما بعد.

- ولكنه يصر على رؤيتك... ثمة مفاجأة يحضرها لك.

(زمن المفاجآت ولّى.. والمصادفات المفتعلة سخرت منها كثيراً عندما تحدثت مع زملاء العمل عن المسلسلات التلفزيونية... مفاجأة.. سيكتب لي كل أملاكه ويزوجني إحدى بناته... ويحضر والدي مع زوجته الثانية وأبنائه ليعتذروا عما بدر منهم.. و.. و.. قد لا يكون ذلك... ربما... سكون لم تمت.. وهي الآن أصبحت زوجة رابعة له.. ربما ليلى لم تتزوج ذلك الدكتور وهي الآن عنده تنتظرني... يا لرائحة الفحم هذه التي تحاصرني وتجعلني أهذي... وجود أختي دنيا عنده ليس مفاجأة... ماذا يريد عمي... لماذا لا يدعني وشأني... سأغادر هذا الحي الآن دون علم أحد).

- حسناً سآتي بعد قليل.

وجه سكون يحاصرني... ذكريات طفولتي التعيسة تمخر ذاكرتي... ها هي صورتي لا زالت كما وضعتها ذلك اليوم على الحائط... أكثر سواداً.

أشعر بالاختناق في هذه الغرفة... هنا ماتت سكون... رائحة الفحم لا زالت تهيمن على الغرفة... لم تعبث أي يد بهذا البيت... بقي كما تركته سكون... الأزقة كما هي ضيقة وموحلة... هذه

الوجوه ليست بغريبة عني... لا زال الفضول يسيطر عليها.. البعض يتحاشى النظر إلي...

ها هو عمي بجسده الهائل يقابلني في صدر بهو منزله الكبير يحتضنني بصدره... يجلسني بجانبه.

- لم أعد طفلاً.

يبقى صامتاً فترة من الزمن.. يقدم لي شاياً.

(كنت أشرب الشاي مطعماً بحب الهال في ذلك المقهى).

ألتزم الصمت.. أحضر في ذهني أكثر من إجابة لأكثر من سؤال.. أتوقع أن يسألنيه.

- أتعلم بأن خالتك سكون عثر عليها ميتة في منزلها؟!

- علمت ذلك وهذا الذي جعلني آتي إلى هنا.

- لقد أفاد الطبيب الشرعي بأنها كانت حاملاً عندما وجدت ميتة.

- ولكن هي لم تتزوج... لا أصدق هذا...

- التقرير لديّ... لم أشأ أن يطلع عليه أحد غيرك خوفاً من العار.

- ماذا تقول يا... يا عمي... أنا واثق بأن سكون لا تفعل هذا.

- ولكن هذا حدث.

- ربما اغتصبها رجل ما...

- كل هذا جائز... كل ما أريده منك أن تنسى بأن لك خالة تدعـى سـكون.. أريـد منـك أن تبيـع البيـت وتحرق جميع أشيائها... وتمسح من ذاكرة الجميع امرأة تدعى سكون.

- أهذه هي المفاجأة...؟

- لا... ولكن المفاجأة تكمن بالداخل!!

- ....!!

- لقد قالت لي أختك بأنك تحلم بالزواج من هدى..

-: ذلك عندما كنت مراهقاً... هدى الآن سعيدة مع زوجها.. بالإضافة إلى كونها أكبر مني.

- هدى لم تسـعد مع زوجها، لقد طلقت بعد زواجها بزمن قصير.

- ألازلت ترغب الزواج منها...؟

- ....!!

(هل أفكر بهدى أم بالمسكينة سكون وهذا التقرير الأسود الذي يحتفظ به عمي كالشهادة).

هدى تنظر إليّ كأخ وقد أخبرتني أختي بذلك أكثر من مرة...

لقد كنت مراهقاً حقاً ذلك اليوم الذي طلبت فيه من أختي أن تطلب لي هدى من عمي.

لم أخبر سكون بذلك... وهدى أيضاً لا علم لها بذلك... كانت فكرة النصف الآخر تسيطر عليّ...

سأتناسى هدى فترة من الزمن لأتأكد من حقيقة الشهادة السوداء التي يحتفظ بها عمي... بعدها قد أجد المرفأ الذي طالما بحثت عنه... لن تكون مدينتي سرابية... وستتحول رائحة الفحم إلى عبق رائع مثل تلك الرائحة التي عرفت بها سكون.

هل ستبقى مدينتي سرابية؟!

..أعذريني ياسكون إذا رفعت ذلك الستار الذي يفصل بيننا فأنت أكثر من أم لي... لا أريد أن تهتز صورتك في مخيلتي.. أريدك أن تبقي رائعة دائماً..

* * *

قلبت البيت رأساً على عقب لأبحث عن شيء يوحي إليَّ أنها كانت متزوجة أو ترغب بالزواج... فلم أجد... حاولت أن أجد عنواناً لأختي دنيا فهي حتماً تعرف كثيراً عن خالتي سكون، ولكن كل ما عرفته أنها رحلت بعيداً مع زوجها... فكرت في الزواج من هدى قد تعرف شيئاً، ولكن شرط عمي هو أن أغادر بيتها بعد أن أبيعه وأحرق جميع أشيائها عندها سأتزوج هدى... وقبل ذلك لن أتمكن من رؤيتها...

(هدى هي الطُعم الذي يريد أن يصطادني به عمي).

صخب المنجرة أهون... سأعود إلى عملي وأتزوج ابنة العم محمود وأشتري لي بيتاً صغيراً أعيش فيه حياة آمنة سعيدة.. وأولد من جديد...

الاختناق ورائحة الفحم تحاصرانني تذكرانني بسكون... كل شيء أسود يذكرني بالفحم... كيف أستطيع العيش والليل أسود والشهادة التي يحتفظ بها عمي سوداء... والفحم أسود... أسود.

(... هل لأن السواد هو لون النجاة من الموت).

لا أدري لماذا أصر زميلي في تلك الليلة عندما قرأت عليهم قصيدة (ضد من) لأمل دنقل بأن هذا المقطع يوحي بشيء من التفاؤل.... قد يوحي بأشياء كثيرة... وعندما كنت أسأل عن لوني المفضل كنت أجيب السائل بأنه اللون الأبيض.

(ربما كنت في ذلك الوقت محاصراً بهاجس ليلى).

والآن وسكون متشحة بكفن أبيض هل بقي هو لوني المفضل.

يا لهذا الاختناق!!! من منكم يعرف سكون... من سمعها تغني... من رآها ترقص؟... ماذا كانت تلبس... جميع ملابسها سوداء... سأصيح منادياً في أزقة الحي من منكم يعرف سكون؟

ولكن أخاف عليها من العار...

الشهادة التي يحتفظ بها عمي قد أجد صوراً منها معلقة على

جميع جدران المنازل في هذا الحي.. سأنفذ أمنية طالما رددتها قبل أن أرحل... سأفتح متجراً صغيراً في بيتها وسأبقى أنتظر من يدلني على مدينتي السرابية.

* * *

لم يكن ذقني بهذا الطول في السابق، حيث لم تحاصرني رغبة شراء ماكينة حلاقة يابانية الصنع كالتي ملأت إعلاناتها صفحات المجلات الأسبوعية.

علاقتي بكل الأشياء التي أشعر أنها جزء مني انقطعت... سمعت الأطفال ينعتونني بالعم سعيد.

حدجتني إحدى النساء بنظرة رثاء عندما كانت تشتري بعض الأواني المنزلية... سألتها:- أتعرفين سكون؟

- مستورة... ادعُ لها بالرحمة.

- رأيتها تغني... ترقص؟

- كثيراً.

- ما علاقتك بها؟

-: جارة.

خافت أن يكون هنالك بعض الأعين المتلصصة والآذان المتصنتة.

- أريد أصغر من هذا الإناء.

- ألمحت أحداً يدخلها بيتها؟

- يكفي هذا الإناء ما الثمن؟

- أرجوك أخبريني.

- أرجوك أنت.. أخبرني ما ثمن الإناء.

- مجاناً إذا أخبرتني عن كل شيء تعرفينه عن سكون.. لم هذا الخوف؟... لماذا تركت الإناء... ليست بوباء... هي مستورة.. وهذه الشهادة السوداء!

* * *

- وماذا تريد من التقرير؟... لتمزقه!

- ولكن أنا واثق من أنها شريفة.

- كيف تثق وأنت بعيد عنها؟

- إذن أريد رؤية التقرير.

- إذا لم تصدقني وأنا عمك بمقام أبيك فهذه هي المأساة... هذا هو العيب المتأصل جذوره فيك من أمك وخالتك.

- ولكنهم شرفاء.

- ومن يؤكد ذلك؟

- اسأل أبي هل خانته أمي بعد زواجها منه حتى موتها اسأل الجميع عن سيرة خالتي سكون.

- جميع أهل الحي رأوها وهي تتمايل راقصة ومغنية في الأفراح.

- هذا هو العيب.

- كفى جدالاً.. الآن يحق لي أن أعذر أخي حينما أخرجكم من بيته أطفالاً لتعيشوا مع سكون.

- أحقاً أنت عمي... أشك في ذلك... وأشك أن ذلك الرجل هو أبي... عندما كنا أطفالاً لا نراه إلا في فترات محدودة في السنة كان يخاف من زوجته الثانية.. والآن عرفت أنه يخاف من نفسه.. إذا كان ارتكب خطأ فما ذنبنا نحن... وأنت وإن كنت عمي عندما أعلم الحقيقة التي أنا واثق منها تماماً سيكون لك شأن... سيكون... سيكون.

* * *

الحي بأزقته الضيقة... رائحة العفن تنبعث منه... البرد بدأ يتسلل إلى ذلك الحي... تدثر الجميع بأغطية صوفية... بحثوا عن الدفء... بائع الفحم وضع أكياساً منه على حماره... كان يصيح منادياً... (فحم) نظر إليه سعيد شزراً.

- أنت!

- من؟!

- أنت بائع الفحم؟

- أجل... أتريد فحماً... لدينا أنواع من الفحم الفاخر!

- لا أريد فحماً.. لا أريد فحماً... ولكن أنت السبب. أجل أنت السـبب.. ألم تبع فحماً في العام المنصرم لامرأة في هذا البيت؟!

- أتقصد سكون؟

- أتعرفها؟

- ومن لا يعرفها... دائماً تشتري مني لكوني أبيع أجود أنواع الفحم.

- وتعترف أيضاً.

- ماذا تريد؟

- أنت السبب في موتها.

- أمجنون أنت؟... أجل مجنون.. يا أهل الحي أنقذوني من المجنون.

يا لهذا الفضول الممتد في أجسادهم كأوردة شرايين... ها هم أحاطوا بي.

- ماذا تريدون؟

- صلّ على النبي.

- اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد.

- اهدأ.

- كيف أهدأ.. ألم تعلموا أن (سكون) ماتت مختنقة برائحة الفحم.

- نعلم ذلك.

- هذا هو السبب.

- ليس هو السبب لماذا لم يختنق جميع أهل الحي.

- ماتت قضاء وقدر.

- دعوني أسألكم بكل صراحة.. ماذا تعرفون عن سكون؟

- أرملة ترقص وتغني في الأفراح. لا شيء أكثر من ذلك.

- ألها علاقة عاطفية بأحدكم... هل رأيتموها تمشي مع رجل أو أحد يدخل بيتها... أجيبوني بصراحة.

- لماذا هذه الأسئلة... أتشك في خالتك؟.

- علمت عنها خبراً سيئاً؟

- معاذ الله ولكن ليطمئن قلبي.

- هداك الله.. عُد إلى عملك، ودعك من أسئلة قد لاتجد حلاً لها.

* * *

أخبرني أحدهم أن عمي كرر أكثر من مرة في أثناء حديثه

عن سكون أنه سيكون له شأن معها.. ردد ذلك في كل ليلة تحيي بها حفلاً..

ما هو هذا الشأن؟

يا لهذا السؤال... تلك الهاوية لا أريد أن أسقط فيها... قد تكون سكون حاملاً.

أيكون ذلك الجنين ابناً لعمي... لكنه يخاف من العيب سأحاول استدراجه بالكلام.

- أخبرتني سكون برسالة وصلت منها أنك كررت طلب الزواج منها.. وأصررت على ذلك.. ووافقت بعد أن أخبرتها أن الزواج سيكون سراً..

- سافل أنت، أتطعن في شرف عمك، أتطعن في شرفك؟

- ولكن الرسالة هي الدليل على الزواج لا أقول أكثر من ذلك.

- الجميع يعرف أنني لا أتوارى عندما أرغب في شيء.. ولو طلبت الزواج منها لأعلنت ذلك على الملأ. . لك ما تريد إذا أحضرت شيئاً يثبت ما قلته.

- الرسالة.

- أحضرها إذا كنت صادقاً... ثم لماذا لم تتذكر الرسالة عندما أخبرتك بما حدث لها...

- إذن أرحني ابن من هو هذا الجنين.

- لتغادر حالاً هذا المنزل لا أريد أن أراك مرة أخرى.. أبوك أعلن براءته منك منذ زمن، وأنا كذلك.

لماذا أبدو ضعيفاً هكذا؟.. زملائي وصاحب المنجرة سيصعقون حين يرونني بهذه الهيئة..

لقد بدأت أشك بمدى صدق عمي... سكون ليست بحامل.. سكون ماتت مختنقة برائحة الفحم...

جميع من رآها في ذلك اليوم أخبروا أنها كانت تحضِّر لفرح تلك الليلة... كما هي عادتها عند كل فرح.

(هل كانت لديها القناعة أن القصور الرملية لابد أن تنقض.. لا أدري لماذا شعرت برغبة الدفء)...

كنت متخوفاً تماماً من الفحم... فتحت باب الغرفة والنافذة وأشعلت الفحم في موقد حديدي وضعته في وسط الغرفة... تسربت رائحته لأنفي..

أمسكت بقطعة فحم لم تصبها النار... أغراني بياض الحائط الرخامي... بدأت أكتب.. كتبت في أعلى الحائط من اليمين:

أب   أم

مددت خطاً أسفلها ووضعت كلمتي (بنت ولد) كتبت على يمين كلمة أب: أخ وعلى يسار كلمة أم كلمة أخت.

أخ   أب   أم   أخت

1- ______________

بنت   ولد

شـطبت كلمة أم بقيت كلمة أخ وأب وأخت وأسـفلها البنت والولد... قد يرغب الأب بأخت الأم... قد ترفض لرغبتها بأخيه.

أخ   أب.......   أخت

2- ______________

بنت ولد

كتبت بجانب كلمة أخت كلمة زوج وشطبت بخط خفيف.. بقيت كلمات الأخ والأب وأسفلها البنت والولد.

أخ   أب.....

3- ______________

بنت ولد

وشطبت كلمة بنت.. بقيت كلمتا الأخ والأب وأسفلهما كلمة ولد.

أخ   أب.....   ...

4- ______________

.... ولد

لابد من تحديد مصيرهم... تحولت بقية قطعة الفحم إلى ذرات سوداء في يدي.. حاولت أن أحضر قطعة أخرى.. وجدت أن جسدي بدأ يتهالك...

جلست بالقرب من ذلك الموقد وبدأت أتأمل ما كتبت.

الدوار... أتربع فوق قمة شاهقة.. أنظر إلى الجميع أشبه بالدمى الصغيرة... لماذا لا يقوى أحدكم على التحدث بصوت مرتفع؟

اسمعوا! لقد استطعت أن أتفرس في وجوهكم بعيني المجردة.. عرفت أنكم لا تستطيعون نفي الكذب... غير قادرين على كتم ضحكة...

الدوار... هذا الوباء الذي يجتاحني... ما أحوجني إلى سماع كلمة واحدة تقنعني بمنطقية الأشياء التي أمارسها.

لست مجنوناً... تتوهمون ذلك... وخالتي سكون ماتت.. وأنا الذي أتربّع فوق قمة شاهقة... ماذا يعنيني أن ينعتني الجميع بالمجنون أو ماتت سكون أو وجدت نفسي وحيداً بلا أب.. بلا أقارب... هل تتوقف القافلة وأُلقى للكلاب الجائعة حيث لا أحد يبكي عليّ.. قرأت ذات مرة بأن الذي يبكي لفقد إنسان.. ما.. هو الأرض... هو الوطن... أشك بانتمائي لهذا الحي... عمي طلب مني مغادرته حالاً لكونه لا يرغب أن يعيث المجنون فيه فساداً... والأزقة الموحلة تتذكر مواطئ قدمي...

طفلاً كنت ألعب بالوحل أرسم على الجدران الرخامية (حمامة ونخلة).

أرسم قلباً بأجنحة.

أصعد فوق أسطح البيوت الطينية محاولاً الإمساك بحمامة... أقذف الكلاب بالحجارة.. ألعب مع الصبية بكرة صغيرة... نتقاذفها.. نهرب خائفين عندما نصيب أحد المارة... نلتهم حبات البرد.. ها هو ذا الجوع يحاصرنا.. ها هي الكلمات تأسرنا... نبحث عن صدى لأصواتنا... نأكل البرد... يجتاحنا الغثيان... أحياناً ببراءة نمارس العنف نضطهد أجسادنا بالوحل... أطفالاً كنا وكانت أزقة الحي تردد أسماءنا... هذه الكلمات قاصرة...

حقاً تماديت في العبث... ما الحقيقة التي أطالب بها؟.. أهي الموت؟.. أهي نبش الذاكرة؟ لتعي أيتها الكلمات كنهك... فيقيناً أن كلمة مات فعل ماض... والماضي لا يعود... لا أدري هل هذه فلسفة أم مجرد هذيان..؟

أختي قالت لي: إنك حينما تغضب تتحدث بكلمات لا تعيها ولا يعيها من يسمعها.. أغلبها يكون مضحكاً.. أأصبحت مهزلة لأهل الحي؟... الأطفال بدأوا ينعتونني بالمجنون... وعمي طلب مني مغادرة الحي.. وسكون يكتنفها الضباب. عفواً فأنا عندما أتحدث أعي تماماً ما أقوله... سألت كثيراً وواجهتني علامات استفهام... قرأت على جدران الحي كتابات لأطفال مجهولين...

قد أتلمس الحقيقة في الخطوط الأولى لطفل... (هذا وجه امرأة... قد يكون وجه سكون.. هذه رسمة لقلب.. تعبير خاص عن حب خاص.. من يحب من؟... من يحب من؟.. في هذا الحي هل يعي أحـد الحـب... هـل يحـب عمـي زوجاته الثلاث؟... من مِن رجال الحي أحب سكون؟.. من يجرؤ على حبها..؟؟

ابنـة عمـي هـدى... هذا الطعم اللذيذ... أتحبني... وما الفرق بين أن تحبني كأخيها أو كزوجها... هل ثمة فرق..؟ الحب واحد.

وليلى ذلك الطيف الرائع... هل شعرتْ بحبي لها... من مِن نساء الحي أحبت سعيداً؟.. ذلك الرجل المجنون الملتحي الباحث عن الحقيقة...

مَن أحبَّ مَن... مَن... مَن... مَن...

- عفـواً يبـدو أنـك لازلـت مولعـاً بهذا البيت حتى بعد بيعك له؟!

- آمل أن يبقى كما هو!!

* * *

الجزء الخامس

(هـذه الـنـافـذة تصرُ على تـوديـع الشمس وداعـاً مؤلماً لاستقبال ليل طويل)

تشـرف النافـذة علـى حـي صغيـر... أنـاس يغـادرون مواطـئ أقدامهم متجهين إلى بقاع أخرى تنقلهم أقدامهم إليها...

بعض الأسـطح لبيوت شـعبية... الغسـيل... ونسـاء يهربن من أعين متلصصة.

(أنـا الـهارب من دوامـة الـحزن.. صوتي ذو بحة محببة ووجهي يزينه شج جميل.. أنـا الـهارب من كل الأصقاع أبـحث عن ملجأ).

يُقرع باب الغرفة... يفتح الباب...

- ذلك الرجل مصر على أن نعمل في بيته مساء.

- لقاء كم؟

- لم يحدد ولكن نرغب في موافقتك.

(أيها الغامض.. أنت كل شيء... أنت لاشيء... ها هم أولاء ينتظرون مقولة منك... ليذهبوا... المنجرة أغلقت... وأنت لا تحتاجهم لشيء...)

- أتوافق؟

(لا أدري لماذا أنا بالذات من تحاصره الأسئلة.. ليكن الرفض... سيحقدون علي... وقد يدبرون مكيدة... وأنا لا أريد منهم شيئاً)

- سيدي ننتظر موافقتك.

- ولكن أليس هذا إرهاقاً لكم؟

- مطلقاً.

- ربما يؤثر ذلك في عملكم غداً..

- نتعهد لك بالقيام بعملنا على أكمل وجه.

- حسناً.. ولكن ليبق ذلك سراً.

(أنت السيد الغامض... الهارب من عالم يتدثّر بالسواد... أهذه مدينتك السرابية؟... قد تكون... ها أنت تنتقل إلى عالم آخر... تصبح صاحب منجرة - كنت تتمنى ذلك- يعمل لديك عدد لا بأس به من العمال، تسكن في هذا المنزل الصغير... بدأت تمتلك أشياء كنت تفتقدها... أهذه هي المدينة السرابية؟ ها أنت تغادر مدن الحزن... تخرج منها... يلفك الشوق.. تغترب يعتريك الحزن...

تموت... تنأى بجسدك بعيداً عن الهياكل المحنطة... لا وقت للسؤال عن تلك المدينة.. صوتك... يا لهذا الصوت.. شجن.... القافلة تمخر الصحراء... تبحث عن سراب مدينة.. لا يحترق جسدك فالشمس أضحت برداً).

لا وقت للإيحاء بأن ثمة سؤالاً ترغب أن تسأله.

- منذ متى وصوتك يشدني؟

هذا الحزن هو صوتك... مولع أنا بهذا الحزن... بهذه الخاتمة لحياة رجل رحل بعيداً.. تحترق كالفحم وهذه الرائحة وهذا الصحو.

ما قمت به كان متوقعاً.. لأمارس الغربة.. مهيأ أنا لهذا التشرد... هذه الذاكرة عبثت بها الطحالب.. مثل المياه الآسنة... لا رغبة لي حتى في تكرار صوتي... أكره اجترار الهاجس المحاصر جسدي.

كائن وسط الرخام.. هذا البياض.. وهذه الغرفة الطينية.. وهذه الفئران.. ووجه قمين بأن تعجب به كل عينين.. هذه الوحدة.. الصمت.. وتلك الأنامل والنغمة الهامسة... أحن إلى الكلمات.. عرفني الجميع بالفنان... صوتي هو امتداد لشوق أو لسكون... هاجس يلح علي بذلك... أشعر بحاجة إلى أن أصطاد النغمة من بين طيات الصمت... هذه الفئران تداعب قدمي.. مخلوق تعيس يبحث عن أشياء ويملك كل شيء... أعجبني هذا البيت الطيني.. كآبته أعجبتني.. انزواؤه... كونه ذكرى لأشياء لا أعيها ولا أنتمي

إليها جعلتني أزداد إعجاباً به... يحتضنني صمته... يعرفني الجميع بالغريب والسؤال الملح دائماً:- لماذا اخترت هذا الحي ولماذا لا يعرفك أحد؟ صوتك شجن... لا وقت لدي لكي أجيب على هذه الأسئلة.

تبقّ يا صوتي على هذا الشجن ويبقى سعيد كياناً يمارس الغربة.. يسعد بذلك الوجه المضيء لهذه الزوايا المظلمة.

تفيق دائماً على صوت الصراخ... العويل... الأطفال يهنأ لهم العبث بكل شيء يدفع إلى الفضول... القطط. وتلك المرأة العجوز تضع طعاماً للماشية... ذلك الشارع الترابي وصوت الماعز... الدجاج القطط.. الكلاب.. حفيف بعض أوراق الشجر... يا لهذا التزاوج بين الطبيعة وبين تلك المخلوقات.. تحن إلى قراءة كتاب... تشعر بالندم على تلك الكتب التي تقاسمها زملاء العمل كغنيمة.

- لا وقت للقراءة فذاكرتك تحفظ كثيراً من القصائد.. ما أروع أن تجسدها بصوتك!!

(من بعد هذا الطوفان كان هذا الزمن كانت هذه الكلمات مشوبة بمرارة لا تخرجِ من هذا الإطار.. لا يحترق هذا الوجه العبوس.

من بعد الطوفان يكون زمن يولد فيه طفل ينظر للشمس لأول مرة.. يغمض عينيه يراها.. يفتح عينيه يرى بقعاً صفراء.. يرتفع الصمت.. تخرج من جوف الليل أشباح سوداء.. تتثاقل الكلمات على لسانك.. تهرع.. تبحث عن

متعة آنية لديمومة الاشتعال... ما يحزنك أن ترتحل عبر الكلمة تغادر تلك البقع الباهتة من زمنك).

- هذا المساء لا أرغب في قدوم أحد منكم.

- نحنّ إلى صوتك.

محمومون أنتم بهذا الهذيان... ماذا ترون في صوتي... يذكركم بأشياء لا أعيها.. تحلمون بذلك الزمن السرمدي. مرتحل أنا عبر مسافات الصوت أجتاز بقايا الكلمات.

كانت الشمس تشرق بهدوء.. النافذة تطل على حائط يمتلئ بالظلال.

وقفت متثاقلاً.

- مساء أمس لم أنم تماماً.

حدثت نفسي.. حاولت أن أترنم ببقايا أغنية..

منذ أن كنت صغيراً كنت أحاول جاهداً ألا أكون مثاراً للفضول... ذلك الحي يمتاز بهدوء... كنت أخاف أن أمشي وحيداً في المساء وسكون فطنت لهذا الخوف.. فكانت تبعث معي من يرافقني إلى أي مكان أتوجه إليه مساء.

كانت المقبرة الخوف الأكبر.. لذلك كنت أحاول جاهداً ألا يكون طريقي يمر بالقرب منها في المساء ولو كان يرافقني كل أهل الحي... عقدة الخوف هذه ولدت لدي إحساساً خاصاً بالضعف

المتناهي تجاه الأشياء الغيبية.

كانت أختي تحكي لي كل مساء قصصاً مختلفة لأساطير شعبية أبطالها الجان... لم أتمالك أن أتخيل أن ثمة جنياً يتقمصني فكنت أهبُّ من نومي مذعوراً أبكي بحرقة.. أسمع سكون تردد دائماً (هم السبب) كنت أسأل أختي: مَنْ هم هؤلاء المتسببون؟.. قالت لي ذات مرة وهي تشير إلى لوحة معلقة على الحائط:- أغمض عينيك بعنف ثم.... افتحهما بهدوء ستكون الصورة قائمة في البدء ثم ما تلبث أن تتضح أمام عينيك.... كذلك كل الأشياء التي تسأل عنها.

لا أدري هل لا زلت مغمضاً عيني لأن كل شيء لم يتضح تماماً... أو ..

كنت أحدق ملياً في كل الأشياء... تنتابني لذة التفرس بالأشياء التي أجد صعوبة في الحصول عليها.. لازلت أسأل هل أنا قاصر حتى الآن... المعالم لم تتضح تماماً.

* * *

الجزء السادس

ما لوجهك مصحوباً بهذه اللعنة.. هذه المدينة التي تراها الآن هي مدينتك.. انتزع صوتك من حلقك واصرخ.. أنا قادم الآن.. أنت مدينتي.. لست سراباً..

استوقفني صوتها عندما سمعتها تغني ذات مساء.. ما أسمعه أمواج متلاطمة من الذكريات الحزينة أهي سكون... ذاك صوتها..

قلت له:- حتماً ستسعد ابنتك هذا المساء.

- وكيف لا تسعد والليلة عرسها؟

- سعادتها ستزداد عندما تزفها صاحبة هذا الصوت الجميل.

- أأعجبك صوتها؟

- كثيراً.

- تدعـى عفيفـة... لمحتهـا مـن بعيد أذهلنـي جمالها... لولا

خوفي من العيب لتزوجتها.

- ألم تتزوج بعد؟

- لا أظن أن مثلها يتزوج.

* * *

استغربت من تصرفي حين قلت لها بأنني بعت المنجرة... التزمت في بادئ الأمر الصمت ثم ما لبثت أن قالت:- أنا لا أريد أن أغادر هذه المدينة.. لدي فيها ذكريات جميلة.

- ولكن أنت زوجتي الآن.

- إذن أنت ستهرب خوفاً من أن تلوكك ألسنة الناس.

- أنا لم أقترف خطأً... أهنالك عيب في زواجي منك؟

- لا... ولكن الذي دفعني إلى الاستغراب كما دفع الجميع هو إصرارك الغريب على الزواج مني بعد حفل الزفاف ذاك.

(لم أشأ أن أطلعها على تفاصيل حياتي القديمة، ولكن كانت تلتذ عند سماعها حديثي عن سكون وصوتها الجميل وهروبي إلى هذه المدينة ومحاولتي نسيان رائحة الفحم التي تكاد أن تختفي... حتى سمعت صوتها ذلك المساء...

تولدت في أعماقي رغبة بأن أعيد سكون مرة أخرى لذلك الحي ممثلة بعفيفة... سيذهل أهل الحي حتماً عندما يسمعون صوتها تغني في حفل الزفاف وعندما يرونها ترقص.

لذا فقد كان إصراري على الزواج من عفيفة، ومن ثم بيع المنجرة والارتحال إلى ذلك الحي.

- أتدري يا سعيد لم أتردد في الموافقة على الزواج منك؟ لأنني وجدت فيك ذلك الشاطئ الآمن الذي كنت أحن إليه دائماً.

* * *

هذا القادم إليكم يحمل في أعماقه مدينة الحلم.. سيقابلكم بوجهه المزدان بذلك الشج الجميل وستذكرونه... حتماً لا زال الفضول مسيطراً عليكم ولا زالت أمهاتكم يتحدثن عن تلك المرأة التي اختنقت برائحة الفحم، وكيف كان صوتها تنفطر له قلوب الرجال الصلدة... هذا القادم الحامل في جسده كل تفاصيل الأرق والغربة والحزن سيحفر في ذاكرتكم أوجاعه... سيتحدث كثيراً ويغني... سعيد أنا.. كل أزقة هذا الحي تتذكر مواطئ قدمي.. كل الجدران الرخامية البيضاء تختزن ذكرى العبث الطفولي (حمامة ونخلة).

(هذا المال يؤهلني لأن أفتح محالاً تجارياً كبيراً في الحي.. سأسترجع بيت سكون وهناك سأفتح ذلك المحل.. سأسميه "مركز سكون التجاري".. لم أتوقع أن تزداد ثروتي بهذه الصورة الفجائية.. المال الذي أخذته لقاء بيعي لبيت سكون كان متواضعاً، ولكن إصراري على فتح منجرة كان سبباً في ارتفاع رصيدي المالي).

كما قررت ها هو الصباح يستقبلني في ذلك الحي، وها أنا أصل إليه مع إشراقة الشمس... أعجبني ذلك الفندق الصغير الذي بُني في طرفه منذ فترة قريبة.

- أنا كنت من رجالات هذا الحي المشهورين ذهبت أبحث عن الرزق وهأنذا أعود ثرياً.

سألتني عفيفة:

- أهذا هو الحي الذي حدثتني كثيراً عنه؟

- قريباً سأريك بيت سكون.. أزقته الضيقة... منزل عمي... صبية الحي الأشقياء.

جعلتها تشاركني في بناء مدينة سرابية... تتخيل أهل الحي وهم ينتظرون سكون لتزف زينة النساء على فخر الشباب، وتلك الرائحة الجميلة التي تعبق منها كانت تأمل أن ترجع سنوات إلى الوراء لتشارك سكون الرقص والغناء.

قالت لي:- في أول حفل للزفاف في هذا الحي سأفاجئ الجميع عندما أغني وأرقص.

- صوتك يشبه صوتها إلى حد كبير.

- هذا ما أخبرتني به وهنا تكون المفاجأة.

- هنا كان بيت سكون.

أشار إلى عمارة شاهقة وجعلني أنزف من الداخل ألماً على

أمل كنت أرتجيه... أخبرني فيما بعد أن ذكرى سكون كانت أقوى مـن كل معـدات الهـدم والبنـاء ، فعرف الجميع تلك العمارة باسـم سكون..

- يا لهم من أوفياء.

- لا تغضب مني، ولكن أقول لك بكل صراحة إن هذا ليس بوفاء بل لكون سكون ظاهرة شاذة بقي اسمها مخلداً.

- أتعني كل من مارست الغناء والرقص تعد حالة شاذة؟

- ربما عند أهل هذا الحي.

- أريد أن أشتري هذه العمارة.

- سيطلب صاحبها مبلغاً كبيراً.

- لا يهم.

* * *

رأيته على كرسي متحرك... قصر نظره رحمني من أن يتعرف عليّ... كتلة من اللحم ملقاة على كرسي متحرك... أهذا هو عمي... علمت أن صغرى بناته ستتزوج قريباً...

- أريد أن تكوني سكوناً أخرى.

- ولكن أنا عفيفة.

- أعلم ذلك ولكن لشـيء في نفسـي أريد أن تحاكي سـكوناً في لبسها ورائحتها الجميلة النفاذة وأن ترددي الأغنية التي

عرف الناس بها سكون.

- ولماذا كل ذلك؟

-: سأفجر ذاكرتهم.. لا أريد أن يعرف أحد بأنك زوجتي إلا بعد أن تنتهي من الرقص والغناء.

كنت قد حدثتها كثيراً عن سكون لذا لم تجد صعوبة في أن تتقمص شخصيتها.

كنت أحد المدعوين لذلك الحفل.. لم يعرفني أحد.. حاولت أن أخفي ذلك الشج بوضع نظارة على عيني... التزمت الصمت منتظراً سماع صوت عفيفة تغني... لا زلت أنا كما كنت صغيراً مثاراً للفضول.. كنت أسمع أهل الحي يتهامسون فيما بينهم... من يكون ذلك الرجل.. أهو صاحب عمارة سكون... من أين أتى ولماذا لا يعرفنا بنفسه..؟ يقرؤني البعض السلام فأرد باقتضاب، ويقدم لي فنجاناً من الشاي ويسألني:-أأعجبك الشاي؟

أومئ برأسي مبتسماً... يا لهذا الانتظار.. تشجعي يا عفيفة ليدوي صوتك مرة أخرى كما كان من قبل في تلك المدينة...

ها هو ذا صراخ النسوة يتعالى... ها هم الرجال يهبون واقفين.

(سكون لم تمت).

يحاول عمي النهوض من كرسيه المتحرك فيعجز.

(سأذهب لأرى).

(ادفعوا بها الكرسي اللعين سأذهب لأرى).

يبقى صوتها مدوياً.. تردد أغنية سكون الحميمة.. يتعالى اللغط بين النساء والرجال... تستمر في الغناء.

(رائع يا عفيفة أجدت دورك بإتقان).

توقفت عن الغناء... صاحت في جمع النسوة (أنا لست سكوناً.. سكون خالة زوجي سعيد.. إذا لم تصدقوا فاسألوه).

أمسك بي بعض رجال الحي واقتادوني إلى عمي

(لماذا عدت للحي مرة أخرى).

ومن تلك المرأة التي تغني.

- زوجتي.. زوجتي عفيفة.

(ألا زلت مصراً على جلب العيب لعائلتنا).

واجهتني نظرة عمي الحادة خلف تلك النظارة المقعرة العدسات.. شعرت أني أحترق...

صرخت (العيب أنتم).

تطاير الغبار من حولي.. تهاوت أذرع وأقدام على جسدي... بدأت أصرخ.. لفّني الغبار.. حملتني تلك الأذرع... قذفت بي بعيداً.

* * *

الجزء السابع

(من رأى منكم مدينة تحترق فلينع سعيداً فتلك مدينته التي بقيت سراباً.. كفاكم صمتاً.. اصرخوا في وجه كل من حاول إحراقها... تلك المدينة بنيت من سراب لماذا لم تتركوه يمارس الحلم... ليبني مدينته بيديه.. ليتأمل تلك المدينة السرابية ويحاكيها أهو الحلم يبقى؟).

كنت أسمعهم يتهامسون حولي..

- كانت الضربة قوية على رأسه.

- لقد أكمل الشهر فاقداً الوعي.

- أتتوقع أن تكون تلك العملية الجراحية مجدية؟

- على الأقل محاولة.

حاولت أن أتفرس في وجوه من حولي... لم أر غير البياض.. تلاشى الصوت وتلاشت الذاكرة (هذه المدينة أصرت على أن تبنيها

شوق وكانت أضعف من ذلك.. ثم حاولت سكون بإصرار أن تشعر جميع أهل الحي بأن تلك المدينة ليس لها من السراب إلا الاسم فاختنقت برائحة الفحم.. لا أحد يرغب في أن يضحي باسمه ليبني مدينة مقتنعاً بأنها سراب).

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا فاقد للوعي.. بدأت بعض الأصوات تطرق أذني.. سمعت أحدهم يقهقه... والآخر يترنم بأغنية... سمعت صوتاً أنثوياً ناعماً وأحسستُ بوخزة إبرة في ذراعي... تألمت كثيراً... حاولت أن أصرخ.. حبس الصوت.

- لقد بدأ يتحرك.

- ستتحسن صحته حتماً.

أصوات غريبة عليّ تماماً... هذه هي المرة الأولى التي أسمعها فيها.. حاولت أن أصرخ مرة أخرى... أصابتني رعشة.. بدأ قلبي يخفق بقوة... شعرت أنني أبتعد عنهم.

لماذا انتابني شعور بأني وشك الرحيل... آخر وجه رأيته كان وجه عمي... لقد أعلن غضبه عليّ صراحة هذه المرة... أخاف أن أفتح عيني وأراه مرة أخرى ولكن لا أعتقد أنه سيأتي إلى هنا... ولو أتى فسيجهز عليّ.. إنه ينتظر بفارغ الصبر قدوم الناعي.

شعرت أنني بدأت أتنفس بصورة طبيعية... أطلقت آهة... سمعت أقداماً تتجه نحوي...

- أحضروا الطبيب لقد بدأ يسترد وعيه.

أمسك أحدهم يدي والآخر وضع سماعة على صدري حاول آخر أن يفتح عيني بإصبعه... تحدثوا كثيراً... بدت أصواتهم متداخلة ببعضها البعض لم أفهم ما قالوا... حاولت أن أفتح عيني.. واجهني البياض... بدأت أشعر بألم في عيني... حاولت أن أحرك قدمي... ساقي... شعرت بثقل غريب... لابد أن زمناً طويلاً مر وأنا على هذا الوضع... أطلقت آهة أخرى... شعرت بلساني يثقل... حلقي يختنق...

هذه المرأة التي انتشلها صوتها إلى مدن السراب أين هي الآن؟ إذا فعلوا بي هكذا فكيف سيكون مصيرها؟ أين هي الآن؟ لابد أنها اختفت هي الأخرى برائحة الفحم... سيدبرون لها مكيدة ويقضون عليها كما فعلوا مع سكون... سيجعلونها تستنشق تلك الرائحة...

أصبحت تلك الأصوات مألوفة لديّ على الرغم من غرابتها.. مجموعة من الرجال وامرأة لابد أنها الممرضة.. أين هي عفيفة؟... بدأت أنادي... خانني صوتي.. بدأت أحرك يدي اليمنى أتبعتها باليسرى.. بدأت تتجمع الأحرف في فمي.. التقطت أول اسم لفظته ذاكرتي، فصرخت (سكون).

سمعت أحدهم يقول:- اسم امرأة.. لقد بدأ يتحدث.

رددت مرة أخرى (سكون) لم يحدث ذلك أي رد فعل... ألا يوجد أحد منكم يعرفها... كررت مرة ثالثة.. (سكون).

- من هي سكون؟

- انتظر لحظة لابد أنه سيتحدث.

لا أحد يعرف (سكون) حاولت أن أعتصر ذاكرتي.. بدأت أردد... أنا... دنيا... شوق... سكون... عفيفة... هدى... أحمد... عم... عمي... عـ... عفيفة... فحم.... أرهقتني تلك الأسماء... سمعت أحدهم يقول:

- ما علاقة الفحم بتلك الأسماء؟

شعرت برغبة في النوم... لقد أجهدت كثيراً هذه المرة.

هل ستسعد عفيفة بتلك المدينة السرابية أم أنها ستحترق مع الفحم؟

شعرت بشيء من النشاط يدب في جسدي.. فكرت أن أبدأ بتجربة جديدة... سأفتح عيني بهدوء وأتأمل تلك الوجوه الموجودة بالقرب مني.. في البدء اخترقت عيني كتلة مؤلمة من الضوء ثم ما لبثت عيناي أن ألفتاه... ثلاثة أشخاص بدوا كأشباح بيضاء في البدء... حاولت أن أركز نظري على ذلك الرجل الذي يقبع بالقرب من السرير.. كل شيء فيه يوحي بالارتياح لما وصلت إليه.. لا بد أنه الطبيب المشرف على علاجي... حرك يده أمام عيني... تابعتها... بيضاء مليئة بالعروق النافرة...

- لقد بدأ يرى ولكن أتمنى ألا يرهق نظره بالتركيز على الأشياء التي حوله..

شعرت بالثقة المطلقة التي كان يتحدث بها... تابعته بعيني وهو يغادر الغرفة.. أما الآخر فقد اقترب مني بمجرد مغادرة الطبيب.. بدأ يتفرس في وجهي... وجهه غير مألوف لديّ... هيأته لا تدل على أنه طبيب... لم يراقب حركة عيني مثل الطبيب ولكن مجرد تقليد... شممت منه رائحة الفضول... حاولت أن أتأمل الثالث.. كان يقف بمحاذاة الباب من الداخل... بعد تعب عرفت أنه أحد رجال الأمن...

لن أتحدث حتى يأتي الطبيب... غادر ذلك الرجل الغرفة وتبعه رجل الأمن... وأغلق الباب... بدأت أتأمل تلك الغرفة... صغيرة هي جدرانها بيضاء.. لا يوجد بها غير هذا السرير الذي أرقد عليه وكرسي خشبي وضع بالقرب من طاولة على يمين السرير... توجد نافذة تمنح الغرفة شيئاً من النور.. مرتفعة بعض الشيء ومحاطة بشبك حديدي يمنع الهروب منها...

غادرت السرير.. شعرت بدوار خفيف.. أمسكت بالسرير.. اتجهت نحو الباب.. حاولت أن أفتحه... كان مغلقاً... سمعت صوت أقدام وصوت امرأة تتحدث... عدت سريعاً إلى ذلك السرير...

فتح الباب... كنت قد أغمضت عيني... فتحتهما بهدوء.. رأيت رجل الأمن عاد إلى مكانه بالقرب من الباب وممرضة تقترب مني تحمل بيدها حقنة صغيرة... رأتني أنظر إليها... ابتسمت... يا

لهذا البياض... لقد واجهتني تلك الابتسـامة من قبل... أجل إنها هي... صرخت بأعلى صوتي (ليلى).

سقطت حقنة الدواء من يدها وغادرت الغرفة مسرعة.

(انتـهت)

كتبت في الفترة

من: 1404/12/4 – 1406/2/11 هـ.

الموافق من 1984/8/31 – 1985/10/26م

عبد العزيز صالح الصقعبي

روائي ومسرحي سعودي

الأعمال القصصية

- لا ليلك ليلي ولا أنت أنا
- الحكواتي يفقد صوته
- فراغات
- أنت النار وأنا الفراشة
- يوقد الليل أصواتهم ويملأ أسفارهم بالتعب
- أحاديث مسائية
- البهو

الأعمال الروائية

- رائحة الفحم
- حالة كذب
- طائف الأنس
- اليوم الأخير لبائع الحمام

الأعمال المسرحية:

- صفعة في المرآة ومسرحيات أخرى

العنوان

ص . ب 89590 الرياض 11692

E-mail: asals1999@yahoo.com

: asals2005@gmail.com

رائحة الفحم



عبدالعزيز الصقعبي

هذا القادم إليكم يحمل في أعماقه مدينة الحلم.. سيقابلكم بوجهه المزدان بذلك الشج الجميل وستذكرونه... حتماً لا زال الفضول مسيطراً عليكم ولا زالت أمهاتكم يتحدثن عن تلك المرأة التي اختنقت برائحة الفحم، وكيف كان صوتها تنفطر له قلوب الرجال الصلدة ... هذا القادم الحامل في جسده كل تفاصيل الأرق والغربة والحزن سيحفر في ذاكرتكم أوجاعه ... سيتحدث كثيراً ويغني... سعيد أنا.. كل أزقة هذا الحي تتذكر مواطئ قدمي .. كل الجدران الرخامية البيضاء تختزن ذكرى العبث الطفولي (حمامة ونخلة).

يتكئ الصقعبي في روايته هذه على منظورات متعددة للقص تتمثل في مواقع الراوي ووجهة النظر أو ما يسمى "رؤية العالم"

د. محمد صالح الشنطي

"فن الرواية في الأدب العربي السعودي المعاصر"

بل إن أحدث تقنيات البناء لم تغب عن الرواية السعودية، فعبد العزيز الصقعبي بنى حبكة روايته (رائحة الفحم) على الزمن النفسي، ومعروف أن تنظيم الحبكة الذي يستند إلى الزمن النفسي مرتبط بمدرسة تيار الوعي.

د. حسن حجاب الحازمي

"البناء الفني في الرواية السعودية"





تصميم الغلاف : مهدي عبده